أولادنا

عميل فى المصيدة

تأليف
عبد التواب يوسف



دار المعارف

أولادنا

٤٤

عميل فى المصيدة

تأليف

عبد التواب يوسف

دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الإلكترونى – دار المعارف

الرسوم الداخلية والغلاف
أشرف عيد

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref @idsc.net.eg

(١)

كراسة الإنشاء

وضعَ رشدى كُرَّاسة الإنشاءِ أمَامه عَلى مكتبه، وتطلَّعَ إلى سقفِ غُرْفته، وقَدْ تدلىَّ مِنْهُ سلكٌ كَهْربِىٌّ، يَنْتهى بمصْبَاحٍ صَغيرٍ.. نَبَّهه ذلكَ إلى أنَّ الظلامَ قَدْ بدَأ يتسَلَّلُ، فامْتدَّت يَدُه يُضِئُ المكانَ، وَرَاحَ يُفكر فى الموْضوعِ الذِى طلَبَ منه مُعَلم اللُّغةِ العَربيةِ أنْ يكْتُبَه..

- «مَا الذِى تُريدُه لمسْتَقْبَلك؟»

ابتسمَ، وَهُوَ يخطُّ فى وَرَقةٍ بيضَاء، كمسودةٍ لعَنَاصِرَ مَوْضُوعه: «المال».. وانتظرَ قليلاً وهو يُدير الموضوعَ فِى رَأْسِه، إذْ خطرَ له السَّفَرُ، وَتوقَّفَ عندَ الكلمةِ قليلاً، واسْتبدلَهَا بكلمةِ «الترحَال».. وَأعجبته مُوسيقَى الكلماتِ، وَمَا فيها من سجْعٍ، فأضَافَ بضحكَةٍ عَالية: «وَخُلُوِّ البَال».. وَبَدَأ يكتبُ مَوْضُوعه ليُغَطى هَذِه العناصِرَ الثَّلاثةَ، ثُمَّ نامَ قَرِيرَ العَيْن..



ومعَ الصباحِ جمعَ الأستاذُ الكراسَاتِ من طلاَّب الفصل، ثُمَّ عَاد بها بعدَ بضعةِ أيام، وراحَ يُنَاديهم واحدًا بعدَ الآخرِ، وَيُسَلم كُلاًّ منهم كرَّاسَةً، مَعَ تعقيبٍ قَصيرٍ..

– مصطفى طه.. أحببتُ فيكَ رَغبتكَ فى أنْ تخففَ آلامَ المرضَى بدراستكَ للطِّب، وَأَملك فى أن تُعَالج الفقراءَ مجانًا..

– كمال شاكر.. أرجُو أن تتاحَ لك فُرصة الالتحاق بالكليةِ الحربيَّة لتصبحَ ضابطًا تدافعُ عَنِ البلادِ بشجاعةٍ وإخْلاَص..

– علاء عبد الجواد.. دِرَاسةُ القانونِ لتحققَ العدالةَ بين المواطِنِينَ أمرٌ يستحقُّ منَّا التقدِير..

– أمين جرجس.. اتجاهُكَ للأعمالِ الحرَّةِ شيءٌ طيِّبٌ..

مَكاتبُ الموظفينَ مُكْتظةٌ ونحنُ بحاجَةٍ لأمْثَالك..

– رشدى فرحات.. فَكرت فِى المال والترحال وخلوِّ البال.. أى فى نَفْسِك، مَاذا عَنِ الآخرينَ؟! لاَتَعْليق..

– صلاح عبد السميع.. مَوْضُوعكَ فِى الصَّميم. الزراعةُ..

وتسلَّمَ الجميعُ كرَّاساتهم، ويفرحُ البعضُ بدَرَجَاتهم، وَيَعْبسُ آخرونَ، وقَدْ يتبادَلُون الاطلاعَ عَلى الموضوعَاتِ، وَعَلى مَامَنَحهم أُسْتاذُهُم مِنْ كلمَاتِ تَشْجيع، مثل: جيِّد، وجيد جدًّا، وممتاز.. وطرحَ عليهم موضوعًا جديدًا قبلَ أنْ يغادرَ حجرةَ الدِّرَاسة، ولَمْ يَفُتْهُ أنْ يلقِى بنظراتٍ ذاتِ مَعْنى نحو رشدى، وَلَمْ يَعْبأ هذا، وَهَزَّ كتِفَيْه، وهو يقولُ لِنَفْسه..

- مَا العيبُ فيمَا كتَبْتُ؟ كُلُّ الناسِ تفكرُ فى نفسِهَا.. وكنتُ أصْدق مِنَ الآخرينَ، وأكْثر منهم صراحَةً!

الزملاءُ فى حجرةِ الدرَاسةِ تهامَسُوا فيمَا بَيْنهم.. موضوعاتُ الإنشاءِ كثيرًا مَا تفضحُ كَاتبيهَا، وَهُم يعرفونَ عن رشدى - فعلاً - أنَّ ذَاتَهُ هِىَ مِحْور حَيَاته، وكانُوا يَرْوُون عنه مِنْ وراءِ ظهرهِ حكاياتٍ كثيرةٍ تكشِفُ عَنْ أنَانيته، وَحُبِّه لنفْسِه، وإعجَابه الخاصِّ بذكَائه، وتفوُّقِه عَلى البَاقين، وعندمَا حاولَ أن يدافعَ عن وجْهةِ نَظَره، رَافِضًا مَا قَاله أشِقَّاؤه، ابتسمَ علاء عبد الجواد وقالَ له ضاحكًا، مُخففًا وَقْعَ الأمرِ عَلَيْه..

- هَلْ منَ الممكنِ أنْ يعيش إنسانٌ فى بلدٍ مُحْتل، وهو «خَالى البَال»؟!.. وَطَننا يا رشدى هَمُّهُ ثَقِيل، ويجبُ أنْ يشغلَ بَالَنَا ليلَ نَهَار.. أرجُوكَ أنْ تعيدَ النظرَ فِى آرائِكَ هَذِه..

وانصرفَ الجميعُ إلى الإعدَادِ للحصّةِ التَّالية.. وظَلَّ رشدى خِلاَلها مُشتت الفكرِ، غائبًا عنهم، يسألُ نفسَه..

- هَلْ أنا كما قالَ الأستاذُ؟! ألا يعملُ هو مُعلمًا لكى يتقَاضَى مُرَتبه فى نهايةِ الشهرِ؟!.. ثم أىُّ عجبٍ فِى السفرِ والترحَالِ لكى نعرفَ العبادَ والبلادَ؟!.. مُعَلمِى ظَلَمَنِى..

ولَمْ تنفرجْ أسَاريرهُ إلاَّ بعدَ أنْ هتفَ..

- منَ الأفضلِ لِى أنْ «اشترى دِمَاغى»..

وأعْجَبه أنْ يطردَ من رأسِهِ كُلَّ مَا قَالَه أستاذُه، وزميلُهُ، وَمَا يتحدثُون بِهِ فِيمَا بَيْنَهم، وادَّعى أنَّ الغيرةَ وراءَ كُلِّ ذلكَ.. وإلاَّ فَمَنْ منهم استطاعَ أنْ يجعلَ كلماتٍ مَوْضوعة مُوسيقيَّةٍ عَلى هَذِه الصورةِ البدِيعَة؟!..

الغريبُ، أنَّ رُشدى ظَلَّ يذكرُ هَذِه الحَادثةِ البسيطةَ.. كَانت تقفزُ إلى رأسِه بينَ حينٍ وَآخَر، ولا يدْرى لذلكَ سببًا.. إنَّ أمورًا عدةً تقع هىَ أكْثر أهميَّةً وإثَارَةً، ومعَ ذلكَ يستطيعُ أنْ يتناسَاهَا، وأن يغفلَهَا اللَّهُم إلاَّ هذَا الموضوع الإنشَائى، وتعْقيب مُعَلمه وزمَلائه عَلَيْه.. غَيْرَ أنه كانَ وَاثقًا مَنْ أنَّ الأيامَ سوفَ تجعلُهُ كأنْ لَمْ يَكُن، لكنهَا لَنْ تغير قَطّ منْ أحْلاَمه فى امتلاَكِ المَال، والتَّرْحَال إلى بلاَدِ الله، وَلَن يشغلَ بَالَه بالآخَرين، وليسَ منْ مَعَهم أنْ يفرضُوا عَليْهِ التفكيرَ فِيهم، وَلَهُم.. وعندمَا قرأ ذاتَ يومٍ «ما استحقَّ أنْ يُولَدَ من عَاشَ لِنَفسِه فَقَط» تذكَّرَ موضوعَ الإنشَاء، وكلماتَ مُعَلمه، وتعقيبَ زَميله، ونظرَاتِ تَلاَميذ الفصْل، وحاوَلَ أن يُنَحِّى كُلَّ ذلكَ جَانبًا، لكنَّهُ لَمْ يُفْلحْ فِى ذلكَ بسُهُولَةٍ..

(٢)

الحادث الرهيب

الأيامُ تَمُرُّ، وتفرقَ الزملاءُ كُلٌّ إلى حَال سَبيلهِ.. حَصَلَ «رشدى» عَلى الابتدائيةِ عام ١٩٣٦م، وكَانَ كلُّ طلاَّبهَا يُخْتبرونَ فيها عَلى مُسْتوى كُلِّ مصرَ، وعَدَدهم لم يكنْ يصلُ يومئذٍ إلى عشرةِ آلاَف.. وبعضُ الرَّاسبين يُكَررونَ المحَاولةَ مرةً بعدَ أخرى، فإذَا لم يُوَفقوا طَبَعوا بطاقةً يكتبونَ عليها فُلاَن الفُلاَنى. «ساقط ابتدائية..»

الطريفُ أنَّ عدمَ الحصولِ عَلى الشهادةِ الابتدائيةِ كانَ يُيَسِّرُ لهؤلاءِ عملاً كتابيًّا فِى دَوَائرِ الحكُومة، وكَانُوا يتقاضُونَ راتبًا أقلَّ من زُمَلائهم الناجحِينَ.. وبعض هؤلاءِ يواصلُ الدراسةَ فِى المرحلةِ الثَّانوية، إذَا أتِيحت لَهُمُ الفرصَةُ، واسْتطاعُوا أنْ يدفعُوا المصروفاتِ المدرسيَّة، وكَانت أيَّامها تثقلُ كاهلَ الأهْل، وأغلبُهُم مِنَ الفقراءِ.. وكانَ الزملاءُ يَلْتقون

بينَ حينٍ وآخَرَ، وهم يتبادَلُونَ الأَخْبارَ، ويقدمونَ التهنئةَ لمن وَجَدَ وظيفةً أوْ عَمَلاً، وَلِمَنْ وجدَ لنفسِه مقعدًا فى المدرسةِ الثانوية، أو الصِّنَاعية.. وقدِ التحقَ بها «رشدى»، وهو مِنْ مواليد عام ١٩٢٢م، وسوفَ يبقَى بهَا خمْسَ سنوَاتٍ، ويتخرجُ فيها وهو فى التاسعةِ عشرةَ من عُمره، وهى سِنٌّ مناسِبَةٌ لبدءِ الحياةِ العَمَلِيَّة..

وكانت مصرُ قَدْ وقَّعَت مَعَ انجلترا فى نَفْسِ العام - ١٩٣٦م - تلكَ المعاهدةَ التِى لمْ يَكُن الجميعُ رَاضِين عنها، لكنَّ تَوْقيعَهَا تَمَّ تحتَ ضغطٍ من الإنجليز، سِيَاسيينَ وعَسْكريينَ، فَقَدْ كَانت انجلترا فى عَجَلةٍ منْ أمرهَا، وتَخْشَى أنْ تنشبَ الحربُ مَعَ ألَمَانيا، وأوضَاعها فى مِصْرَ غَيْر مُستقرة، لذلكَ سَارعت بهذهِ المعاهدةِ لتضمنَ البقاءَ فى هذا المَوْقعِ الحيوى، الذِى يُمكنها منْ أنْ تسيطرَ عَلى قناةِ السُّوَيس، وَتَحْمى مَصَالحَهَا فى المنْطِقَة.. واضطرَّ المصريونَ إلى بعض الهدوءِ، فَقَدْ كانَ الانجليزُ يضربونَ بيدٍ منْ حديدٍ عَلى كلِّ مَنْ تُسَوِّلُ له نفسُهُ أنْ يرفَعَ منْ صَوْته ضِدهم..

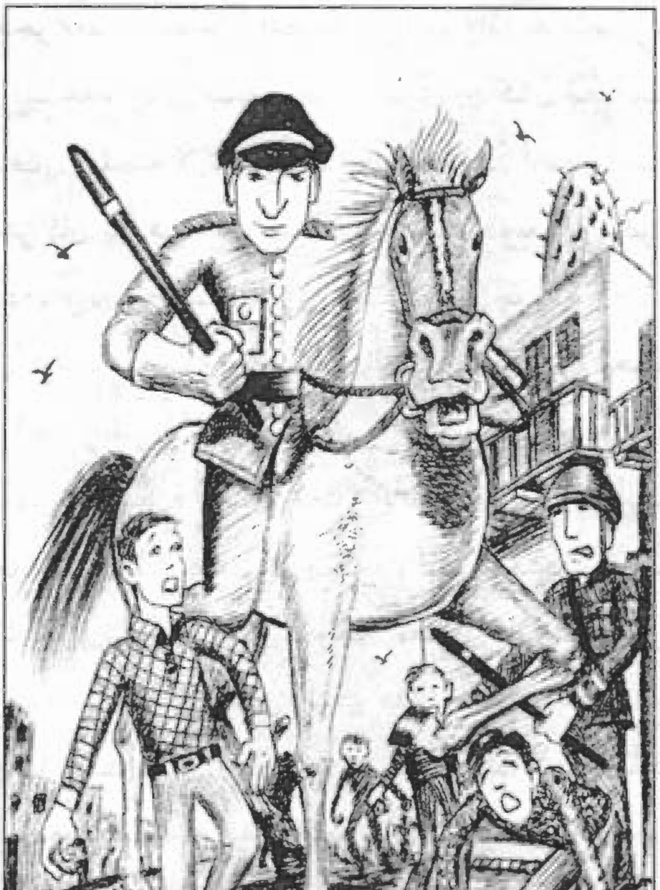
لكنَّ جذوَةَ الكفاحِ لمْ تَنْطفئ، وظلَّت مُشتعلة، فالمظاهراتُ تندلعُ بينَ وقتٍ وآخرَ، وَمَا من أحدٍ قَادر عَلى أنْ يكبحَ جماحَ نفْسِه، أو يطيقُ أنْ تَبْقى القواتُ البريطانيةُ عَلى ترابنَا الوَطنى الطَّاهر، فهى تُلَوِّثه، ونَحْنُ نَأْبَى ذلكَ.

لذلكَ كَانت حركةُ المقاومةِ تَطفُو عَلى السطحِ من خلال التجمعَاتِ التِى تنطلقُ مِنَ المدارسِ إلى الشوارعِ تهتفُ بسُقوطِ الاسْتعمار، وتطالبُ بالجَلاَء، وَيتصدَّى لها الشرطةُ، إذْ كَانت تحتَ سَيْطرتهم، فقد جَعَلُوا مَنَاصِبَ «مدير الأمن»، و «الحكمدار». والمأمور وضباطِ النقطةِ قَاصِرة عَلى الإنجليز، وَمَا أن تَسيرَ مظاهرةٌ فى الشوارعِ حَتى يَأْمُرُوا الجنودَ المصريين بالتصدِّى لَهَا، والوقُوف فى وجههَا، وتشتيتهَا بكلِّ السُّبُل، وَمَنْ يَتَوانَ من جنود الشرطةِ يَلْقَ عقابًا قاسِيًا..

لذلكَ كَانَ هؤلاَءِ يضطرُّونَ إلى استخدامِ العِصى، والهرَاوَاتِ، يضربونَ بهَا الطلاَّبَ بصورةٍ بَالغة القسوةِ والإيلاَم.. وعندمَا يتوجهُ أولياءُ أمُورِهم إلى «الحكمدار» الإنجليزى ليقدِّمُوا الشكاوى ضد هؤلاءِ الجندِ، يُحسنُ - ذلك

- الرجلُ الخبيثُ «الإنجليزى» اسْتِقْبَالهم، ويؤكِّدُ لهم أنَّ رجالَ الشرطةِ قَدْ تصرَّفُوا دُونَ إذنٍ مِنه، وأنه سوفَ يَمْنَعُهُم من ضربِ الطلاّب، وسوفَ ينزلُ بهم أشدَّ عُقُوبة.. وهكذا، يُوقعُ الخبيثُ بينَ الناسِ وبينَ الشرطةِ المصرية، وقَدْ يُعَاقبهم بلاَ ذَنْب!

وَذَاكرةُ «رشدى» تختزنُ الكَثيرَ مِنْ أحداثِ تلكَ الفترةِ، وهو يتذكَّرُ ذلكَ اليوم الذِى كانَ يشاركُ فيه زملاءَهُ فى مظاهرةٍ ضخمةٍ ضدَّ الإنجليز، وَإذَا بالشرطةِ تُهَاجمهم فى أحدِ الميادين، لتفرِّقَهم.. وكان منهم ضابطٌ يركبُ حصانًا يرقبُ المعركةَ بينَ الطرَفيْن، ويحرِّضُ الجندَ ضدَّ الطلاّب، واضْطرَّ هؤلاءِ إلى أنْ يقذفُوا الشرطةَ بالحجارَةِ، وكانَ الشبابُ الصَّغيرُ مَاهِرًا فى تصْويب الحجارةِ بدرجَةٍ كبيرةٍ، وَقدِ اكتسبُوا تلكَ المهارةِ مِنَ التَّدريبِ عَليها، وَبخَاصةٍ وَهم يريدونَ أن يكونُوا بعيدينَ عنْ أيدِى العَسْكر، حَتى لا تنالهُمْ العِصى.. وكانَ أبناءُ الريفِ منهم يحسنونَ قَذْفَ الأحجار، لأنهم يفعلُونَ ذلكَ مَعَ بلحِ النخيل.. إنَّ الواحدَ مِنهم يُلْقى



بالحجرِ بعدَ أنْ يطوّحَ ذِرَاعه عدةَ مرَّات، وإذَا به ينطلقُ مِنْ بينِ أصَابعه، ويظلُّ يُتَابعُه بعَيْنيه ليرى إن كانَ قدْ أصابَ الهدَفَ.. والمدينةُ لاَ تَنْسى ذلكَ اليوم، فقدْ أرسلَ أحَدُهم بحجرٍ كانَ يئزُّ فِي الهواءِ، كأنه صَاروخ، ومضَى ونظرَاته ترصُدُه، وَإذا به يصيبُ رأسَ جُندى فى جَبْهته، والفَتَى يرقبُ وجهَ الجنُدى.. وأصابَ الهلعُ الطَّرَفين.. الجندىَّ للإصَابة، والفَتَى لأنه عَرَفَ جيدًا مَلاَمح المصَاب، إذْ هو وَالدُه، شخصيًّا.. وسَقَطا معًا، الأب: لأنَّ الحجرَ أصَابه وجعلَ الدمَ ينبثقُ ليُغَطى وَجْهه، والابنُ تَخَشَّبَ ذِرَاعه، وتصلَّبَ، وأصيبَ بالشَّلَل.. وَنُقِلاَ معًا إلى المستشْفَى، وقدِ اهْتزَّت المدينةُ بعنفٍ وعُمْق بسببِ هَذَا الحدَث الجَلَل، وظلَّ حَدِيثها لوقْتٍ طَوِيل.. ولم يَعْبَأ به رشدى وَلَمْ يتوقَّف عِنْدَه، فهو مشغولٌ بنفْسِه عَنْ هَذِه الأُمُور، وَلاَ يُشَارك فيها مِنْ بَاب (خُلُوِّ البَال).

(٣)

أحداث جسيمة

أَنهى «رشدى» دِرَاسته فِى المدرسةِ الصِّنَاعية، وقَدْ نَشَبت الحربُ فعلاً، مَا بينَ المحورِ منْ جَانب: ألمانيا وإيطاليا واليابان، وما بين الحُلَفَاء: إنجلترا وفرنسَا وفيما بعد أمريكا.. وقد عَانت مصرُ الكثير مِنْ وَيْلاَتِ هَذِه الحرْب، وَتَرَاكمت الدُّيُونُ عَلى إنجلترا، لمصر، لأنَّ الجنودَ الإنجليز عَاشُوا عَالةً عَلى بلادِنَا طوَال الوَقْت، وجاعَ شعبنَا ليأكُلُوا، وتعرَّى ليلبسُوا. ومصرُ صابرة، عَلى أملٍ واحدٍ هو أنْ يَنْتهى كلُّ ذَلكَ بخُرُوجهم مِنْهَا، وحُصُولها عَلى حريتهَا كاملةً، كمَا يَنْتهى احتلالُ انجلترا للسُّودان، وَقَدْ أظلمت مدنُنُا بسببِ غاراتِ الألمان والإيطاليين، وارتفعَت الأسعارُ ارتفاعًا فاحشًا..

وعندمَا انتهى «رشدى» مِنْ دِرَاسته، بعد أنْ تعثَّرَ عِدّةَ مَرَّات فى صُفُوفها، توقَّعَ أهلُه أنْ يُبحث لَه عنْ عمل يَدَوىّ،

يزدادُ به خبرةً بعد أنْ أتْقَنَهُ خِلاَل سنَوَاتِ الدراسَةِ، لكنهُ مع الأَسفِ الشديدِ لمْ يكنْ يحبُّ هَذَا اللّونَ مِنَ العملِ، بلْ ويضيقُ به كلّ الضّيق، ويرددُ له الجميعُ أنَّ هَذَا العملَ شرفٌ كبيرٌ، وَلكنه يرفضُ ذلكَ، وَيُكَابر، ويحاولُ أنْ يبحثَ عَنْ «وظيفةٍ» أو عمل مَكْتبى، وكانَ ذلكَ ميسورًا، فى ذلكَ الوقتِ.. لكنه كانَ عملاً رُوتينيا، لا يكتسبُ منه «رُشدى» خبرةً أو دِرَايةً بشيءٍ جديدٍ، كُل مَا هُنالك أنه يَتَقَاضى رَاتبهُ أولَ الشهرِ، ويُبدِّدُه فِى أسرعِ وَقْتٍ، دونَ أن يتطلّعَ إلى الرُّقى بنفْسِه، وتنميةِ مَهاراته.. وهو فى نفسِ الوقتِ لم يعطِ اهتمامَهُ إلى مَا يَجْرى حَوْله، رغمَ الأحداثِ الجسامِ التِى تَقَعُ، وإنْ تَرَامى إلى أذُنيْه بعضٌ ممّا وقعَ فى معركةِ «العَلَمين».. وكانت مصرُ كلُّها قد انْقَسَمت إلى فريقيْن: واحدٌ منهمَا يتمنَّى لو أنَّ الألمان والإيطاليين زحَفُوا عَلى البلاَدِ، وهزمُوا الإنجليزَ، وأجْبروهم عَلى الجلاءِ عَنْ مصرَ، ويَوْمها قامتْ مُظَاهرةٌ ضخمةٌ تهتفُ فى الإسكندريةِ إلى الأمامِ يَا «رُومِيل».. وكانَ ذلك مذهلاً، خاصّة وأنَّ الانجليزَ لمْ

يتصدُّوا لَهَا، ولمْ يعتقِلُوا أحدًا ممَّنْ شاركَ فيها، الأمرُ الذِى إنْ دلَّ عَلى شىءٍ فهوَ يدلُّ عَلى أنَّهم مُدَبروهَا لأمرٍ فِى نُفُوسِهِم، إذِ انتهزُوا الفرصةَ، وأقالُوا الحكومةَ القائمةَ، وفرضُوا حكومةً أخرى عام ١٩٤٢م.

كُلُّ ذلكَ لَمْ يحركْ «رشدى»، ولَمْ يدفَعْه إلى الاهتمام. بمَا يَجْرِى أو مُتَابَعته.. وكَان الفريقُ الثَّانى يُؤَيدُ الانجليزَ والحلفاء، ويسَانِدُهم، عَلى أملٍ واحدٍ، هو أنْ يُحققوا مئاتِ الوعودِ التِى تكرَرَ بَذْلها لَنَا بالجلاءِ عَن البلادِ، لكنها ذَهَبت أدْراجَ الرِّياح، وظنُّوا أنَّ باسْتِطاعتهم أنْ يَفْرِضُوا عَلى البلادِ بقَاءَهم عَلى أرْضها.. وكلُّ الذِى فعلُوه هُوَ أنهم قامُوا بالجلاءِ عَن القَاهرة عام ١٩٤٦، وارتفعَ علمُ مصرَ الحبيبِ عَلى قلعةِ صلاَح الدين، التِى كانَ الإنجليزُ يعسكرونَ فيها عِنْد قُدُومهم عام ١٨٨٢م. !..

الغريبُ فى أمرِ رشدى أنه اتجهَ للعملِ معَ القواتِ البريطَانيَّة، فى منطقةِ القناةِ، لأنهم يدفعونَ أجورًا أكبر، وكلَّمَا عَاتبه أحَدُهم أو توجَّهَ إليْه باللَّوم، رددَ عبارةً

سَـخِيفةً، يطلـقُ مـنْ بعـدهَا ضـحكةً هِسْـتيريةً رخيصـةً.. كانَ يقولُ..

– «اللِّى يتجوَّزْ أمِّى، أقُول لَهُ يَا عَمِّى»!..

وكـثيرًا مَـا عَقـب سَـامعوهُ بعبـارةٍ تصـلُ إلى أُذُنيـه، لكنَّـهُ يتظاهَرُ بأنه لَمْ يَسْمعها.. كَانُوا يقولونَ له..

– «جَالَك العَمى»..

ولم يتشرَّفْ رشدى بأداءِ وَاجب الخدمةِ العَسْكَريَة، وعندمَا اسْتُدعى للتجنيدِ، فَـرضَ عَلـى أهْلـه أنْ يَبيعُـوا قطعـةَ أرضٍ صَغِيرةٍ، كَانتْ هى البقيّة البَاقية منْ أملاكِ الأُسـرة، ليـدفعُوا له مَا كَانَ يُسَمى يومئذٍ «البَدَليّة».. أى أنَّ منْ يريدُ ألاَّ يلتحق بالجيش عَليه أنْ يدفعَ للحكومةِ - تعويضًا عن ذلـكَ - مبلغًـا مِـنَ المـال.. وهـو نظـامٌ غريـبٌ، وَضـعَه البريطـانيونَ ليبقَـى الجيشُ مِنَ الفقراءِ، كمَا كانُوا يُعْفون المتعلمينَ وحفظةَ القـرآنِ الكريمِ حَتَّى لا يلتحقَ به هؤلاَء الذينَ حَصـلُوا عَلـى قـدْرٍ مـنَ التعليمِ، فيظَلّ جنودُه أمِّيينَ جُهَلاَء..

لذلكَ لمْ يُشَاركْ «رشدى» فـى حـرب ١٩٤٨م. لَقَدْ نشـبَتْ حـربُ فلسـطينَ، بعـدَ إعـلان قِيَـام إسـرائيل فـى ١٥ مـايو ١٩٤٨م، وحَاوَلت البلادُ العربيةُ أن تنقذَ ما يمكنُ إنقاذُه مِـنْ أرض فلسْطين، وَتمكَّنَت مصرُ منْ أنْ تستخلصَ قطـاعَ غـزّة، كما كانَ فى الإمكانِ الاحتفَاظِ بجَانبٍ مِنَ الضفّةِ الغربيّة لنهر الأرْدن، لكنَّ المـؤَامَراتِ الصُّـهيونيةِ والـدول الكُبْـرى سَـانَدَت إسرائيلَ لتصبحَ خنجرًا فى قلـبِ الـبلادِ العربيّـة، وسَـارعت باحتلال أرض النَّقَبِ وُصولاً إلى البحرِ الأحْمر.. وأشاعَت فـى كُل الدُّنيا أنَّ العربَ الفلسْطينيين قَـدْ بَـاعُوا أرْضـهم، وكَـانُوا كَاذِبينَ، فلمْ تكنْ إسرائيلُ تمتلكُ أكثرَ مِنْ خَمْسـةٍ بالمائـة مـنْ مسَاحة ما احتلُّوه، وكانت تلـكَ الأحـداثُ كارثـةً كَـبيرة، لم يعن «رشدى». بمعْرفتهَا وَلاَ إعْطَائها اهتمامَـه، لأنـه مشْغولٌ بنفْسِه عَنْ كلِّ شيءٍ..

وعنـدَما ألغَـت مصـرُ معَاهـدةَ ١٩٣٦م انسـحبَ العـاملونَ المصريونَ مِنْ معسكراتِ الإنجليزِ فى القنـاةِ.. كـانَ ذلـكَ فـى أكتوبر عام ١٩٥١م، لكن رشدى كانَ فى دهشةٍ لذلكَ، وتمنَّى

لو أنه استطاعَ البقاءَ، غيرَ أنه خَشى تهديدَات الفِدَائيين الذِينَ راحُوا يُغيرونَ عَلى البريطانيينَ فانسحبَ مَعَهم، ولم تَتْركه حكومةُ مصرَ عَاطلاً، بلْ ألحقتْهُ بعملٍ رأى أنه لاَ يليقُ به، فتركَه عَلى أملٍ أن يجدَ أفضلَ مِنْه..

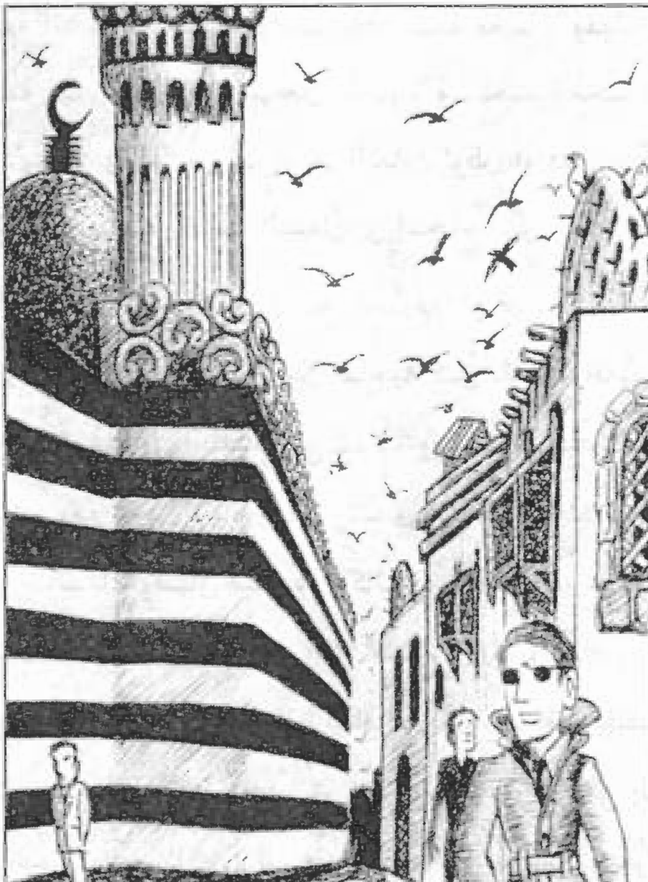
(٤)

اللقاء الرهيب

كَانَ كلُّ ما يَسْعى إليْهِ «رشدى» أنْ يجدَ عملاً يُدرُّ عَلَيْه مَالاً كثيرًا، بلاَ مَجْهود.. وعندمَا قَامت ثورة ٢٣ يوليو أصْبحت الأمورُ أصعبَ عَليه ممَّا كانَ، فالبلادُ تتجاوبُ معهَا وتعيشُ أيامًا فيها انتصاراتٌ لمنْ يُريدُ أنْ يُعطى ويأخُذَ، وهُوَ لَمْ يتعوَّدْ قطّ عَلى العطاءِ والبذْلِ، لذلكَ اضطَرَبت أمُورُه أكثر وأكْثر، وهو لا يحسُّ بنفْسِه مُنتميًا لمَا حَوْله، ولاَ لما يجرى.. هو يريدُ أنْ يَثرى على حسَابِ الآخرينَ، والفرصةُ ليْسَت مُتَاحة لهذَا، والقطارُ ينطلقُ بسرعةٍ وهو غيرُ قادرٍ عَلى أنْ يَلْحَقَ بِهِ، ليستْ له عَلاَقَة بالزِّرَاعة، ولاَ بقوانين الإصْلاح الزِّرَاعى.. وَلَيْسَتْ له صلةٌ بالصِّنَاعة، رَغم تخرُّجه من مَدَارسهَا.. كَما أنه لَمْ يُمَارسْ التجارَة.. وَضَاق بِهِ الحَالُ، وفكَّرَ كما يفكِّرُ بعضُ النَّاس: الحلُّ هو التِّرحَال.. العملُ فى

بلَدٍ عَرَبى.. المرتباتُ هناكَ كبيرةٌ، وَمَيْسورٌ له أنْ يحصلَ عَلى المال الكَثير، وله صديقٌ سَافر إلى ليبيا، وحَدَّثه طويلاً عَنْ أنه سوفَ يجدُ فيها ما يَسْعى نَحوه، فأعدَّ نفسَهُ ليسَافِرَ إليْهَا، من أجْلِ أن يحققَ حُلْمه بالثروةِ السَّريعة..

وفى طرابلس - عام ١٩٥٦م - وجدَ نفسَه يكررُ التجربةَ - ذَاتَهَا - التى عَاشها فى بلَدِه: بلاِ عَمَل.. وما قامَ به من قبلُ لمْ يؤهلهُ لعمل حَقيقى.. لاَ عَمَله فى الجيش البريطانى، وَلاَ الوظَائفَ الصَّغيرةَ التى تقلَّبَ فيها مَنَحته خبرةً يمكنُ استثمارهَا، وإذَا به لا يجدُ له ملاذًا غَيْرَ المقاهِى، يصرفُ وَقْتَه، ونقودَهُ القليلةَ فيهَا، وينتظرُ لعلَّ القدَرَ يحققُ له شيئاً مَا.. وفى المقهىَ يلتقِى الناسُ، ويتعارفُونَ، وأيضًا يتبادلُونَ الحديثَ فى مودَّةٍ، ودونَ هدفٍ إلا التَّسْلية.. وَفى وَاحدةٍ منَ الجلسَاتِ تعارفَ عَلى شَاب قدمَ له نَفْسَه عَلى أنَّ اسْمَهُ (سليم)، وقالَ إنه (لبنانى) الجنسيّة، وَطالت بهما الجلسةُ، وَتَفَرعَ الحديثُ، وَأدْرَكَ «سليم» أنَّ «رشدى» يرغبُ فى الحصول عَلى المال، منْ عمل لا يبذلُ فيه مَجْهودًا.. وعرفَ



«سليمُ» أنه أمامَ شخص مناسبٍ جدًّا لمهمةٍ مُعَيّنة، ولمهنَةٍ مَا لاَ قيمةَ لَهَا، وَلاَ تحتاجُ لمؤهل بذاته، وَلاَ لخبرةٍ مُحَدَّدة.. فقطْ لابدَّ لمنْ يقبلهَا أنْ يكونَ بلاَ انْتمَاءٍ: لوطن أوْ دينٍ أوْ قيمٍ يتَحلَّى بِهَا، ويؤمنُ بأنهَا السبيلُ إلى النجاحِ المَالى.

تكررتْ لقاءَاتُ «رشدى» مَعَ «سليم»، وتقاربَا أكثر منْ خِلالهَا، وبدأ سليم يتحملُ عن صَاحِبه كلَّ نفقاتِ المقْهَى، بلْ وكانَ يدعُوه إلى الطعامِ فى كَرَمٍ، وبذلكَ توَثقت الصلةُ بينهمَا.. ومعَ مُرورِ الأَيَّام عَرَف رشدى أنه لَنْ يجدَ لنفسِه عملاً مناسبًا، وضاقَ صَدْرُه، وكَانَت تفلتُ منه عِبَاراتٌ يستدلُّ بها من يسْمَعُه إلى أنه أصبحَ لاَ يؤمنُ بالعُرُوبةِ، والعربِ، بلْ كانَ أحيَانًا يتلفظُ بكلمَاتٍ يكتشفُ منها الناسُ أنه لاَ يُؤمنُ إلاَّ بالمَال، فحسْب، وأنه مُسْتعدٌّ لأَنْ يَسْعى إليه بكلِّ السُّبلِ والوَسَائل.. لذلكَ فَقَدْ رحَّبَ ترحيبًا شديدًا بعرْضٍ قدَّمه لَهُ «سليم»، إذْ قالَ له:

– إنَّنى أستطيعُ أنْ أجدَ لكَ عملاً فِى إيطَاليا..

- أرجُو أنْ أجدَ فرصةً خارجَ بلاَدِنَا.

- عِنْدِى فِى جنْوَة أصدقَاءُ يقدرونَ عَلى ذَلِكَ.

- سَاعِدْنى من أجْلِ الوصُولِ إليْهم.

- سوفَ أفْعَلُ..

- وَفِى أقربِ وقتٍ، لَوْ سَمحْتَ..

ومَضَتْ أيامٌ قَلاَئل ووجدَ «رشدى» نفسَه فى الطائرةِ مَعَ «سليم» فِى طَرِيقهما إلى إيطاليا، وقد تصوَّرَ أنه سوفَ يجدُ فيها ما فشلَ فِى العُثُورِ عَليْه فى مصرَ وليبيا.. ونزلاَ معًا فِى وَاحدٍ منْ فَنَادِق رُومَا، وهوَ يكادُ يطيرُ منَ الفرحِ.. هَا هُوَ سيحققُ مَا كانَ يتمنَّاه، ويرغبُ فِيه.. وراحَ وهو يتجولُ فِى الشوارِعِ يهمسُ لنفْسِه بصوتٍ يكادُ يسمعهُ المارَّةُ..

- مَالى أنَا وهذَا العذابُ الذِى يحدثُ فِى الوطنِ العَربى؟ مَالِى أنا والعُرُوبة؟ والقَوْميّة؟!.. لقدْ قَلَبُوا رُؤوسنَا بكلاَمٍ عَنِ الوَحدةِ، وجليسِ السُّوءِ خيرٌ مِنْهَا، وصَدَّعُوا أدْمِغَتَنَا بأحَادِيث عَنِ العدَالة، والحقوقِ الإنسانيّة وَإذا بنَا نعيشُ



أيَّامًا قاسِيَة، أمَّا الحريـةُ فلـيسَ لَهَـا وجـودٌ حَقِيقِـى إزاءَ مـا يحصلُ عليه العمالُ والفلاحُونَ مِنْ حقوق وَمِيزَاتٍ.. أمَّا هنَـا: فى إيطاليا، فمـا مِـنْ شـىءٍ إلاَّ وهـو رائـعٌ وجميـلٌ، وسـوفَ تَمْتَلِئُ جُيُوبى باللِّيراتِ والدُّولاَرات والجنيهاتِ الاسْترلينى.

وعندمَا مَنحه «سليم» مائةَ ألفِ لِيرة كادَ يفقدُ صَوَابه، هَا هى النقودُ تجئُ إليهِ دونَ أن يَسْعى إليْهَـا، ولسـوفَ يُنْفِقهـا فـى سخاءٍ عَلى نَفْسِه، وَيُحَدِّثها ضَاحِكًا..

- يطلبونَ مِنَّا أنْ نعملَ منْ أجلِ أنْ نجعلَ بلادنَـا العربيّـة مُتقدِّمَة، لماذَا نتعبُ أنفسَنَا مَا دَامت هناكَ بلادٌ مُتقدمة فعْلاً، نستطيعُ أنْ نعيشَ فِيهَا؟!.. إنهم إذَا جَـاءُوا إلى هنَـا فسـوفَ يروْنَ التَّقَدم، والنجاحَ، والحياةَ اللائقةَ بإنسانٍ مِثْلى.

(٥)

بداية التورّط

قَالَ «سليم»، مُحدثًا صَاحِبَه «رشدى»:

– انتظرْ.. فى الخَامِسَة سيمرُّ بكَ شخصٌ مَا بالفُنْدُق..

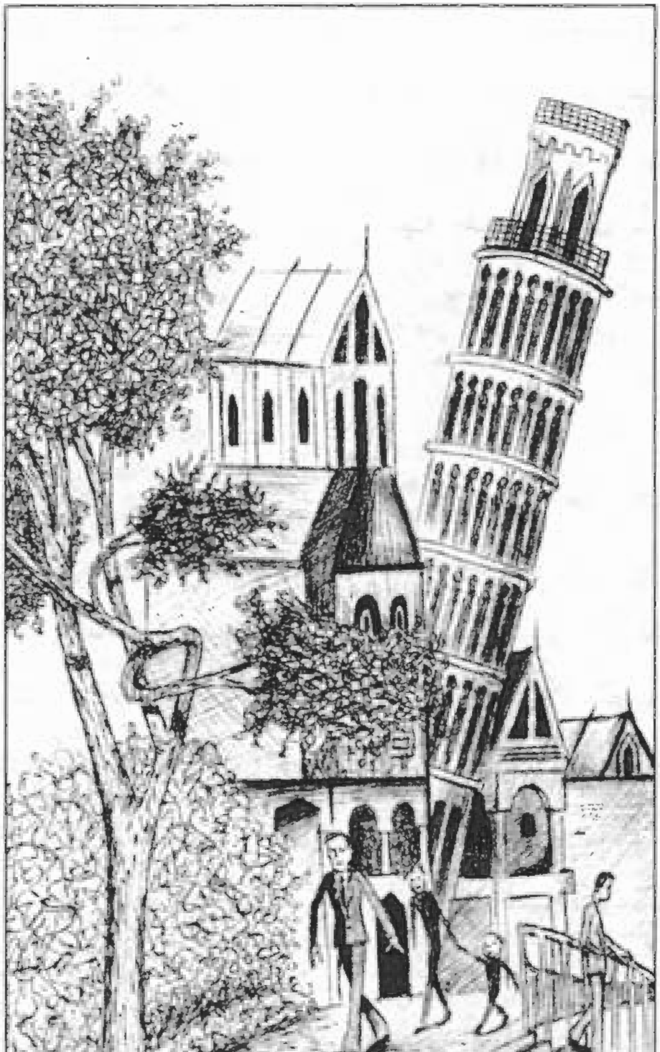
وبقَى «رشدى» فى غُرفتــهِ، ولم يصــلْ ذلـكَ الشـخصُ فِـى مَوْعدِه.. لقد تأخَّرَ طويلاً، حَتى شعرَ «رشدى» بالقلق يتسرَّبُ إلى نفسِه.. إنَّه وحْدَه، ولا يعرفُ إلاَّ القَلِيل عَنْ «سليم» الذِى التَقَى به فى طَرَابلس، كَما أنه لا يعرفُ هذَا الشَّخْصَ القـادمَ إليْه والذِى لم يصلْ بَعْد، رغمَ أنَّ وقتًا طـويلاً قـدْ فَـاتَ علـى موْعِدِه..

– ماذَا يَحْدث لَوْ أنهم تخلُّوا عَنِّى؟ كيفَ أضَعُ ثِقتى فِيهم إلى هذَا الحدِّ، معَ أنى لسْتُ وَثيق الصِّلَة بهم؟

وتنفَّسَ «رشـدى» الصُّعَدَاء حـينَ دقَّ جـرسُ التِّليفـون فِـى غُرْفَتِه، ليعلنَ له المتحدثُ أنه قَدْ جاءَ إلى مَقَابلته، فنزلَ إليه

«رشدى»، وقدَّمَ له القادمُ نفسَه بأنَّ اسْمَه: (عَادل).. وكَانَ يتحدثُ اللّغةَ العربيّة فى سهولةٍ ويُسْرٍ، بلْ وبطلاَقةٍ رغمَ أنَّ شكْلَهُ لم يكنْ يدلُّ عَلى أنه «عربى».. وكَانَ اللقاءُ أشبه بتحقيق مَعَ «رشدى»، فقد طرحَ عليْهِ «عادل» ألفَ سُؤالٍ وسُؤال.. لَمْ يترك شيئاً فى حَيَاته لم يَسْأله عنه.. اسْمه. تاريخُ ميلاَدِه. أبَواه. أقَاربه. أهْله. تعْليمه. الأعمالَ التِى مارسَهَا طِيلةَ حَيَاته..

ولم يكتفِ «عادلٌ» بهذهِ الأسئلةِ بلْ راحَ يَسْأله عَمَّا يَجْرِى فِى مصرَ، وَرَأيه فى ذلكَ، وامتدَّت جلْسَتهما إلى ثلاثِ ساعاتٍ كَامِلاَت، انتهتْ بمنْحَةٍ أخرى منَ اللّيراتِ، لكنَّهُ فى هَذِه المرَّة، سَأله أنْ يُوَقعَ عَلى إيصال أبْرزَهُ لَهُ، ولَمْ يُمَانعْ «رشدى» قَط فِى التوقِيعِ، فَمَاذا يمكنُ أنْ يُصيبَه منْ ضررٍ إزَاءَ ذَلكَ؟!.. لقد تسلَّمَ المالَ، ومَا دامَ قد حَصَلَ عَليْه، فلاَ مَانعَ أبدًا منْ أنْ يَضعَ توقيعَه عَلى الإيصَال.. وانصرفَ «عادل» بينمَا خرجَ «رشدى»، ليستمتِعَ بالمدينةِ الجميلةِ «روما».. وَلَمْ يتنبَّه خلالَ تجوَاله إلى أنَّهَا قَدْ زَيَّنت نفسَهَا بوضعِ ١٤ مسَلَّة



فى مَيَادِينها، بينهمَا مِسَلّتان أصْليتان رَائعتان تَمَّ نقلـهمَا مِـنْ مصرَ، لتكونا أجْمَل مَا فِـى مدينـةِ المتـاحِفِ الرَّائعـة، والفـنِّ التَّشْكيلى الفَريد..

الشىءُ الغريبُ أنَّ «رشـدى» لَـمْ يفكـرْ قَـطّ: أىَّ عمـلٍ هَـذا الذِى سوفَ يُسْنِدُونه إليه؟ ولماذَا كلُّ هذَا المَال الذِى يمنحُونه إيَّاه، دُونَ أنْ يكـونَ هنـاكَ مُقَابـل لـه.. لقـد وصـلَ المـالُ إلى يَدَيْه، ولَه أنْ يُنْفقه كَمَا يَشَاء، وأنْ يَقْضـى كـلَّ لَحَظاتـه فـى هَذِه المدينةِ مُسْتمتعًا بكلِّ مَا فيهَا.. هُو بالطَّبع لم يـزرْ متحفًـا واحدًا، ولاَ أثـرًا مـن آثـارِ المدينـةِ، وهـى فعـلاً مَلِيئـةً بآثـارٍ بديعَـةٍ، تسـتحقُّ المشـاهدةَ والزيـادةَ، لكنـه رَاحَ يتنـزهُ فِـى (فيافينتو) أَجْمل شَوَارِعِ المدينَةِ، وجلـسَ فِـى بعـض مقاهيهَـا الأَنِيقةِ، وارْتـادَ مطعمًـا لَطِيفًـا، تنـاولَ فيـه عِـدّةَ أطبَـاق مـنَ المكرونةِ الإيطاليّةِ الشهيرةِ، وَأوَى إلى فراشِه فـى تلـكَ الليلـةِ سَعيدًا سعادةً كبيرةً، إذْ لمْ يكـنْ يفكـِّرُ قَـط فـى مصدرِ المـال الذِى حَصَل عَلَيْه.. أو مَـاذا يريـدُ منـهُ الآخـرونَ فِـى مُقَابـل ذلك؟!.. لَقَدْ مضَى عنه «عَادل» دُونَ أنْ يقولَ له كلمةً واحدةً

عَنْ نوعِ العملِ الذِى سيلتحقُ به، والمرتَّبِ الذِى سوفَ يحصلُ عَلَيْه، ومثل هَذِه التَّفَاصيلِ التِى يجبُ أنْ يُعرِّفَ بها قبلَ أن يُعْلنَ قُبولَه لَه.

وهنا سَألَ نفْسَه:

مَا الذِى يمكنُ أنْ يحدثَ إذَا لمْ أجد العملَ مُنَاسبًا لِى؟!
وكيفَ أسْتطيعُ أنْ أسددَ لَهُمْ مَا أعطُونِى إيَاه؟!

وبدأ القلقُ يُسَاورُه.. لكنْ لمْ يخطرْ عَلى بَاله قَطّ أنه قدْ بدأ يتورَّطُ، وظَنَّ أنَّ الأمورَ سوفَ تسيرُ كمَا تخيَّلَهَا، وأنها سَتصِلُ به إلى بَرِّ السَّلاَمة، مُحققةً كُلَّ مَا كانَ يَتمنَّاه ويتطلَّعُ إليْه، وراحَ يحاولُ أن يطردَ عنه القلقَ، والشَّكَّ، وسوءَ الظَّن. ويشعرُ بقليلٍ مِنَ الهدُوءِ، ويأملُ خيرًا، خاصَّةً وقَدْ وَعَدَه «عَادِلُ» هذا بأنه سوفَ يمرُّ عَليْه بعدَ يومين، لمناقشَةِ تفَاصيلِ العملِ الذِى سَيُسْنَدُ إليْه..

إذَنْ، أمَامَه يومَان طويلاَن يستمتعُ فيهمَا برُومَا، وشوارعهَا، وَمَيَادينهَا، ومقاهِيهَا، ومَا فيهَا مِنْ جَمَال..

وَنَسِى رشدى قَلَقه وانزعَاجَه، وعَاشَ حَيَاته طيلةَ هذَيْنِ اليومَيْنِ، وأنفقَ كُلَّ مَا أعْطُوه إيَّاهُ مِنْ ليراتٍ، انتظارًا لقُدُومهم، حاملينَ مالاً جديدًا إليْه، وأيضًا تفاصيلَ العملِ الذِى سيقومُ به: كَمْ سَيَتَقَاضى؟ أيْنَ سيقُومُ به؟!.. لَقدْ قِيلَ له: إنَّ العَمَلَ فى (جنوة) بإيطاليا، لكنهم خلالَ أحَادِيثهم لم يَرد اسمُهَا مرةً واحِدَةً، خَاصَّة وهُم الذينَ يطرحُونَ الأسئلةَ، وهُوَ يجيبُ، ومَا منْ فرصَةٍ عِنْده لِيَسْألَ، وإنْ هو سألَ لا يَحْظَى بإجَابات شَافِيَة.

وأدركَ أنَّ هناكَ لونًا منَ الغموض، لا يعرفُ لَهُ سببًا.. لكنَّ ذلكَ لمْ يدْفَعْه إلى السؤَالِ عَنْ طَبيعةِ العملِ، أوْ مَكَانه، أوِ المرتبِ الذِى سوفَ يتقَاضَاه، لكنَّ الأُمورَ كانت من وِجْهةِ نَظَرِه مُبَشِّرَةً إلى حَدٍّ كبيرٍ، ومَا يُعْطونه له فِى سخاءٍ يُؤَكد ذَلِكَ.

(٦)

عمل سرى

وَجَاءَ «عادل».. وجلسَا ليتحدَّثا مَعًا.. وبدأ الحديثُ يأخذُ مُنْعَطفًا جَدِيدًا.. سوفَ يكونُ عملُ «رشدى» مُتصلاً بمنظَّمَةٍ دُوَليَّة عَالميَّة، تجمعُ معلومَاتٍ عَنْ دُوَلِ العَالم، حول كَافَّة ظروفهَا الاقتصَادِيَّة، والاجتماعيَّةِ، والثَّقَافيّة.. ويهمُّ هَذِه المنظمةُ أنْ يشيعَ السلامُ فِى كلِّ الدّنيا، لذلكَ يحظَى التسليحُ بالذَّاتِ بالكثيرِ منَ اهتمامهَا.. وخِلاَلَ الكلماتِ التِى تتعلَّقُ بالعمَلِ كانَ «عِصَام» هذا يضعُ بعضَ عباراتِ الثناءِ والمديحِ لرشدى.. يقول له:

– استشْعرتُ منَ الحديثِ معكَ أنكَ «إنسَان» وتؤمنُ بالسَّلام وتكرهُ الحروبَ.. أنتَ رجلُ مَبادئ.. ومن أجلِ هَذَا نَسْتعينُ بكَ!

وَينتفخُ رشدى، ويجدُ نفسَه قَدْ حَظِىَ بمكانةٍ كبيرةٍ، ويَعْزُو ذلكَ إلى أنَّ هؤلاءِ النَّاسَ قدْ عَرفُوا «قيمَته» وأدْركُوا «أهميته»..

وهَاهُم يفاوِضُونه فِى منصبٍ «دُوَلى» ومهمـة «عَالميَـة».. وعَلـى استحيَاءٍ يسأل:

– هلْ تعتقدونَ أنِّى أصلحُ لمثلِ هذَا العملِ الكَبيرِ؟

– مُؤَكد.. لا تبخسْ نفسَكَ وقُدُرَاتِك.

– وكمْ سأتَقَاضَى عَلى ذَلِكَ؟

– هُناكَ مرتبٌ ثابتٌ، بالدُولاَر..

– هَذا شىءٌ طيِّب!

– وهناكَ مُكَافَآت أخرى عَلى كُلِّ عَمَليّة.. وحَوَافز..

– جَمِيل..

– وأينَ سيكونُ مَقَر عَمَلى؟!

– فى الجمهورية العَربية المتحدة: سوريا ومصر.

– قُلْتم أنه سيَكُونُ فِى إيطاليا؟

– ربما بعْد، بعضُ الوَقتِ يكونُ هـذا، حـينَ يـتمُّ تـدْرِيبكَ وعندمَا تثبتُ كفاءَتَكَ..

– سأفْعَل..

– يتبقَّى شىءُ واحدُ، يجبُ أنْ نتفِقَ عَلَيْه.. وهـو أسَاسِـى ولابدَّ من الالتزَامِ به إلى أقْصى حَدٍّ..

– أىُّ شىءٍ هو؟!

– السِّرِّيَّة.. السريةُ الكاملةُ، والمطلَقَة..

– فَلْيكُن، إذًا كَانت هَذِه رَغْبَتكَم!

– بجَانِب، ألاَّ تكثـرَ مـنَ الأسـئلةِ التِـى تطرحُهَـا عَلينَـا.. مُهمتك: أنْ تُجيبَ أنتَ عَلـى مَـا نَسْـأل.. وعليـكَ أنْ تكـونَ صادقًا كُلَّ الصـدق فـى إجَاباتـكَ عليهَـا، إجَابَـات تفصـيليّة وتكونَ غايةً فى الدِّقّـة، لأَنَّ مَـا نَحْصُـلُ عليْـه مِـنْ معْلُومـاتٍ تَنْبنِى عليهَا قرارَاتٌ غايةٌ فِى الأَهميَّةِ والخطُورَة..

– طبعًا طبْعًا..

– لاَ نريدُ أنْ نكررَ مَا نَقُوله: أقربُ المقربينَ إليكَ يجبُ ألاَّ يعرفَ شيئاً عَلـى الإطـلاَق.. وَإلاَّ فـإنَّ مشـاكلَ كـثيرةً سـوفَ تعترِضُكَ.. وكُنْ حذرًا مِنَ العيونِ التِى تتطلـعُ إليـكَ، والآذانُ التِى تتصنَّتُ عَليْكَ..

- بالتأكيدِ سوفَ أفعَلُ..

- والآنَ، حَانَ وقتُ تدْريبكَ عَلى العَمَل!

لمْ يُحَاول رشدى أنْ يُديرَ فِى رأسِه هذا الحوَارَ الذى دارَ، ولم يُمْعِنْ فيه التفكيرَ، لكنه تَقَبلَه فى رضًا وسُرُورٍ، وَلَمْ يدركْ قَط أنهم يَجْتَذبُونـه إلى رمـال نَاعِمَـة، ويَشُـدُّونه إلى منطقـةٍ خَطرةٍ.. كَما أنهم يُغَلِّفونَ الأُمورَ بـورق مـنَ السـلُوفَان، ليبـدُو كُلُّ شَىْءٍ براقًا، لامعًا، وإنْ أخْفى أكْثَر ممَّـا أعْلـن، وإنْ لَفَّـهُ لونٌ مِنَ الغُموض، أرضَـاه أكثـر ممـا ضَايَقه.. المرتـبُ جَيِّـد، والعمـلُ دُوَلى، وهنـاكَ طـائراتٌ، وتـنقلاتٌ، ورحَـلاتٌ، وفَنَادِق.. لِمَ لا يعملُ فِى دمشق؟!.. إنه سَيَتحدثُ مَع النـاسَ باللُّغةِ العَربية، وسيكونُ من السـهل التَّفَـاهم مَعَهـم، والتقـاطِ المعلومَاتِ الكثيرةِ فى سُهُولة ويُسْر، خاصَّةً ونحنُ أُناس نُثَرْثِرُ كـثيرًا، ونـوردُ أخطَـرَ البيانـاتِ ببسَـاطةٍ، لنؤكـدَ أننَاعـالمونَ ببواطِنِ الأُمور، وإننَا عَلى صلةٍ وثيقةٍ بمسْئولين كبـارًا يُرْضـى غُرُورهم أنْ يتحدَّثُوا - فِى فخـر يصـلُ إلى حَـدِّ الغُـرُور - عَـنْ أنهم «وَاصِلُونَ»، وعَلى معرفةٍ كاملةٍ بكلِّ مَا يَجْرى وَيدُور..

وَرُبما نَتسَاءل: كُلُّ هذا، ولَمْ يَشُكَّ «رشدى» أنَّ وراءَ هذا الذِى يجْرِى، شيئاً مُرِيبًا؟! ألم يحدِّثْ نفسَهُ بأَنَّ هذا الغموضَ لَهُ أبْعَادٌ، يجبُ أنْ يدركهَا، وهدفٌ هو بحاجةٍ إلى أنْ يَعْرِفَه؟

الغريبُ، أنَّ ذلكَ لم يحدثْ، مَعَ الأَسَف.. مَعَ أنه كلَّفه كثيرًا فِى المستقبلِ، لكنَّهُ كانَ ضيِّقَ الأُفُق، تركَّزَ هَدَفُه على كَسْبِ المَالِ، والحصولِ عَلى عملٍ، أيًّا كانَ، ما دامَ يَمْنَحُهُ هذه النُّقود التِى ينفقهَا عَلى نفسِهِ فى سخاءٍ وكَرمٍ شدِيدْينِ!

هَل كانَ جاهِلاً؟ هَلْ كانَ غبيًّا؟! أم أنه فَهِمَ، وتجاهَلَ، وَتَغَابى؟!!

(٧)

نحو الهاوية

وَبَدَأَ «عادل» يتردَّدُ على «رشدى» فِى غُرْفته، ويُدَربه عَلى بَعْض الأُمور، ويَصْحبه إلى بعض الملاهِى ليلاً، وتوطَّدت بينهمَا العلاقةُ، وقدِ انبهرَ «رشدى» بشَخصيَّةِ عادل، وبذكَائِه، وأيضًا بإتْقَانِه للغَات الأجنبيةِ، كما سعدَ بالآمال العريضةِ التِى سوفَ تتحققُ إذَا مَا نجحَ «رشدى» فى عَمَلِهِ الذِى راحَ يستعدُّ له بحماسَةٍ شديدَةٍ، ويتقنُ بعضَ جَوَانبه.. لقدْ عَلَّمه «عادل» كيفَ يستخدمُ الحِبْرَ السِّرِّى، وكيفَ يستعملُ «المظهر» للكِتَابةِ به، وأصبحَ يقومُ بذلكَ ببراعةٍ مُنْقطعةِ النَّظير.. وقبلَ سَفَره إلى دِمشقَ بيومٍ قَدَّم لَهُ «عادل» زجاجةَ قطْرةٍ للعُيُون، واندهَشَ «رشدى» لذلكَ، كما تعجَّبَ لأنبوبةِ مَعْجون الحلاقَةِ.. وقالَ له..

عَيْنَاى ليْسَت بحاجةٍ إلى قطرَةٍ !!

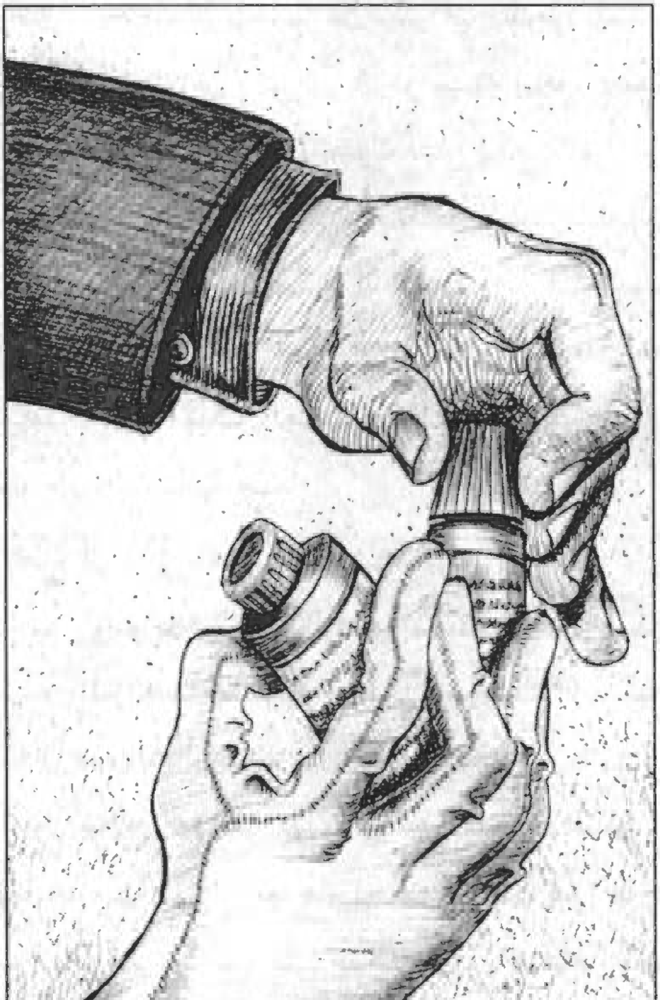
مَنْ قالَ إنهَا لعينيْكَ؟! هذه الزجاجةُ تحتوِى عَلى الحبرِ السِّرى.

آه، لَم أُدرِكْ ذلك.. والمعْجُون؟

هو «المظهر» للحبْرِ السِّرى، لِكَىْ تتمكنَ مِنْ قراءةِ رسَائلنَا السِّريةِ إليكَ، والتِى تحوِى عَلى أسْئلةٍ نُرِيدُ إجَابةً عليهَا..

فَيتطلعُ «رشدى» إليْهِ فى إعجَابٍ، كأنمَا قَد أتى بشىءٍ مُعْجز.. إنه لَمْ يكنْ ساذجًا، لكنّهُ قليلُ الخِبْرةِ، ثقَافتهُ محدُودَة، يتحركُ وعيناهُ مُغمضتَان تجاهَ هدفٍ واحدٍ، أعمَاه عَنْ كُلِّ شىءٍ.. إنَّ التركيزَ عَلى أمرٍ يجعلُ المرءَ يغفلُ عَنْ أُمورٍ أُخرى كَثِيرة.. والإنسانُ مطالبٌ - دائمًا - بأنْ يفتحَ عَيْنيه عَلى مَا حولهُ وأَنْ يفكرَ فيه كثيرًا، لا يعرفُ أبعَادَه، ولا يستطيعُ أَنْ يكتشِفَ مَا قَدْ يكُونُ فيه مِنْ غُمُوضٍ..

وفجْأَةً، وبدونِ سَابقِ إنذَارٍ تذكّرَ موضوعَ الإنشَاءِ، وتلكَ الحصَّة الدراسيَّة التِى مَرَّت عَليها سَنوات وسَنَوات. هُو ما نسيهَا، لكنْ مَا مِنْ شىءٍ – معينٍ – يُذكِره بهَا، إنهَا تقفزُ فجأةً



إلى رأسِهِ، ويحاولُ أنْ يُنَحيهَا عَنْ ذِهْنهِ فلاَ يَقْدر ولاَ يستطيعُ لفترةٍ ربمَا تطولُ إلى أنْ يَأْتى شىء آخرُ يُنَسيه إيَّاها، فيَنْشغلَ عنهَا.. إنه بحَاجةٍ إلى أنْ يتحركَ لِكىْ يذهبَ إلى شِرْكةِ الطَّيَرَان ليحجزَ تذاكرَ السَّفَر، وشراءَ بعضِ المستلزمَاتِ التى يحْتَاجهَا، خاصَّةً تلكَ الهدايَا اللَّطيفَة، وَهُوَ فى مَسِيس الحاجةِ للكثيرِ منهَا، منْ أجلِ أَنْ يقدمهَا للأصدقاءِ الذينَ سيساعِدُونه فى مهمتِه الجَليلةِ، والتِى هِىَ فِى النهايةِ ستكونُ خيرًا للإنسانيةِ جَمْعَاء..

استطاعَ أن يملأَ حَقيبةً كاملةً بهذِه الهدَايَا «المستوردة» فَقَدْ كانت مصر وسوريا فى ذلكَ الوقتِ تعتمدانِ عَلى الصناعةِ الوطنيَّةِ، والميزانياتِ مُخصَّصة من أجْلِ مشروعَات التصْنيعِ، لذلكَ فإنَّ هَذِه الكمالياتِ لم تكنْ موجَودَة فى الأسَواق، كمَا أنَّ العيونَ تتطلعُ إليها فى لهفةٍ، ورغْبَةٍ، ويتقربُ الناسُ لمنْ يقتنيهَا ويُهْديها، وإذَا كانوا هُمْ يحسُّونَ بأنهم فى حَاجةٍ إليهم، إلاَّ أنه شخْصيًّا فى حاجَةٍ إلَيْهم ليَستقى مِنْهُم المعلومَاتِ التِى يريدهَا، والتِى تَطْلبونهَا بشدةٍ وإلحَاح،

ويصرُّونَ عَلى أَنْ تكونَ فِى مُنتهى الصِّدقِ والدِّقَّة.. وامتدحَ «عادلُ» تصرُّفَه هذا، وأمدَّه بالمزيدِ منَ المال.. هاهو قدْ بدأ يُبْدى ذكاءً خَاصًّا، ويكشفُ عَنْ مَوَاهِبَ، كانَ يمْكنه أنْ يستثمرهَا بشكلٍ أفضلَ وبصورةٍ أَصَح وأسْلَم، لِكِنَّه اختارَ الطريقَ الأسْهَلَ، ونَحَّى عَنْ ذِهنه تمامًا أنْ يتشكَّكَ فِى طبيعةِ هَذِه المهمَّةِ.

كَانت مُهمةُ «رشدى» فِى دمشق أنْ يعرفَ الكثيرَ.. لَقَدْ عملَ مِن قبلُ فى معسكراتِ الإنجليزِ، وعرفَ كيفَ تكونُ الحياة فيهَا، وكيفَ يستخلصُ المعلوماتِ عَنها.. سواءٌ كانَت هذِه المعلوماتُ عن القواتِ السُّورية، أو المصريةِ التِى ذَهَبت إلى هناكَ.. عَدَدُهَا.. سِلاَحها.. طَعَامهَا.. مُنْشآتها.. مكانَ إقامتها.. عَرَباتها.. مُدَرَّعاتها. إلى آخرِ هذِه الأمورِ التِى كانَ يجبُ عَلى «رشدى» أنْ يَسْأَلَ نفسَه:

ما حَاجةُ مَنظمَة عَالميَّة للسلامِ إلى مِثْلِ هَذِه البيَانَات؟!

وعندمَا وصلَ إلى دمشق كانَتِ المدينةُ كلُّهَا تتحدثُ فى أملٍ كبير عَن العُرُوبة: التاريخُ والماضِى، ثم الوحدةُ والمسْتقبل..

وكانَ يستمعُ إلى ذلكَ بلاَ مُبَـالاه، كأنمـا الأمـرُ لاَ يَعْنيـه فِـى قليل أو كثيرٍ.. إنه مَشْغولٌ بالمهمةِ التِى أوْكَلُوهَا إليْهِ، والتِـى سوفَ يتقاضَى عليها أجـرًا كـبيرًا، يتـيحُ لـه أنْ ينفـقَ عَلـى نفسِه فى كرمٍ وَسَخَاء.. وقدْ وَعَدُوه بأنْ يزيدُوا فِى مُكَافأته إذَا هو استطاعَ أنْ يقدمَ لهم معلومـاتٍ كـثيرةٍ، وَصَـحيحة، وهـو يعتقدُ فى نفسِه أنه قادرٌ عَلى ذلِكَ.. والـذِى يُدْهشـه أنـه مـا عَادَ يذكرُ أحدًا مِنْ أهْله وأصدقائِهِ، كلُّ الذينَ يفكرُ فيهم هُـم القادرونَ عَلى أنْ يمدُّوه بهذِهِ المعلوماتِ عَلى أنْ يَتَكَتَّم الأَمـر، كَمَا طَلَبُـوا مِنْـهُ - وَرَاحَ يـتردَّدُ عَلـى الأمـاكنِ التِـى يُعْتقـد أنَّ عندهَا مَا يَرْغبُ فِيه، وتعرَّفَ عَلـى عـددٍ كـبيرٍ مـنَ العـاملينَ فِيهَا، وراحَ يقدمُ لهم الهدَايَا، ويَدْعُوهم إلى الغَدَاءِ أوِ العَشَاء، ويُعْطيهم أُذنيْهِ طُولَ الوقْت، ويطـرحُ عَلَـيهم الأسـئلة دونَ أن يثيرَ شُبُهَاتهم.. هِى مُجَرد «دَرْدشَـة» وحـديثٌ عَلـى الموَائِـدِ، ولَوْ بثمنِ أَسْلحتهم، كَمَا يُقَال.

(٨)

العيون اليقظة

لم يتصوَّر «رشدى» أنه مُنْذُ هَذِه اللحظةِ قدْ أصبحَ مَرْصُودًا.. فقدْ كَانت عيونُ رِجَالنا تتابعُ «عصام» وتتبَّعَتْه خُطوةً خُطْوة، إذْ كانت تعرفُ طليعةَ مُهمته فِي روما، وَعَلى الرغمِ منْ أنه كثيرًا مَا كانَ يتخفَّى، ويَمْضِى حَذِرًا، إلاَّ أَنَّ ذلكَ لمْ يكنْ غائبًا عَنِ «الأذكيَاء»، وقد التقطُوا له عشراتِ الصورِ مع «رشدى»، ووضعُوهَا تحتَ المراقبةِ.. إنَّ رجَال «كمال صبرى» مَفْتُوحُو الأعينِ عَليْه، وبالتَّالِى تَعَرَّفوا بسهولةٍ ويُسْرٍ على «رشدى»، لذلكَ غادرَ روما، وَقَدْ سَبَقتهُ رسالةُ تنبيهٍ وتحْذير، بأَنْ يلْقى مَا هو جَدِيرٌ به مِنْ مُراقبةٍ وَمتابعةٍ، إذْ ربما يقبلُ العمل - أو تحدِّثُهُ نَفْسُه بأنْ يتراجعَ عَمَّا هو مقبلٌ عَلَيه، ولا يواصلُ مَسيرته الضَّالَّة.

وصَل «رشدى» إلى دمشق وقدِ احتشدَ بالرغبةِ فى أداءِ مَا أوكلُوه إليه، وَهُوَ يحاولُ فيمَا بَيْنه وبينَ نفسِه أن يتغابى،

وَيَودُّ أنْ يصَدِّقَ مَا قَالُوه لَه، وَمَا أبْلَغُوه به، إنه يعملُ لصالحِ هَيئةٍ دُوَليَّةٍ تَسْعى إلى «السَّلام»، ويسألُ نَفْسَه:

أَىُّ سلامُ هذا الذِى حَدَّثوك عَنه وعملتَ منْ أجْله؟!

سلامُ «صَبحه»؟ «دير ياسين»؟.. وما قبلَ ذلكَ مِنْ مَذابحَ بشعةٍ عام ١٩٤٨!.. ثُمَّ أَىُّ سلامٍ هُوَ الذِى يمكنُ أن يسودَ وإسرائيل انْدفَعَت عام ١٩٥٦م إلى سيناءَ لتحتلَّ أرضَهَا، مُتآمرةً مَعَ إنجلترا وفرنسا عقبَ تأميم مِصْرَ لشركةِ قناةِ السُّويس العَالميَّة؟! لقد أخَذت إسرائيلُ ثمنا بَاهِظًا: أسرارَ القنبلةِ الذَّريَّةِ ويترددُ «رشدى» قليلاً، وهو يردُّ عَلى نفسِهِ:

السلامُ العَالمى مَا بينَ أمريكَا وروسيَا..

وتقولُ له نَفْسُه: وَمَا عَلاَقةُ هذا بمَا لَدَى مصرُ وسوريَا مِنْ أسلحةٍ وَمُعِدَّاتٍ؟!

ويسكتُ «رشدى»، ويتساءَلُ:

وَمَا هذَا الذِى دارَ بينكَ وبينَ مُرْتجى الهامىِ؟!

ارْتبكَ «رشدى»، وخفضَ من رأسِه وهو يتذكرُ ما حَدَث..

بعْدَ وُصُولى إلى دمشق تعرفتُ عَلَيه فى الفندقِ الـذِى نزلـتُ فيه ، قالَ لى إنَّه مِنْ طاقمٍ مِيكَانيكى جَوِّى، قدمَ مِنْ مصـرَ إلى سـوريا مِـنْ أجـلِ إصْـلاح مجموعَـةٍ مِـنَ الطـائرات أصَـابها العطبُ.. وَقَدْ أحسستُ أنَّ القدرَ قَدْ أرسلَ به إلىَّ، لكِىْ يكوِّنَ الصلةَ بينِى وبينَ الآخرينَ، وربما يمـدُّنِى بمعلومـاتٍ أسْتفيدُ منهَا فِى عَمَلى حيثُ قلتُ له إنِّى ضابطٌ بحرىٌّ سَابق! وكـانَ أنْ تلَقانِى باحترامٍ كبيرٍ، كمَا أنه وَثِقَ فِى شخصِى كُلَّ الثقةِ، وكانَ يتحدَّثُ أمَامى بدونِ تحفظٍ. وَيَحْكِى مرتجى مَا حـدثَ بعدَ ذلكَ اللقاء..

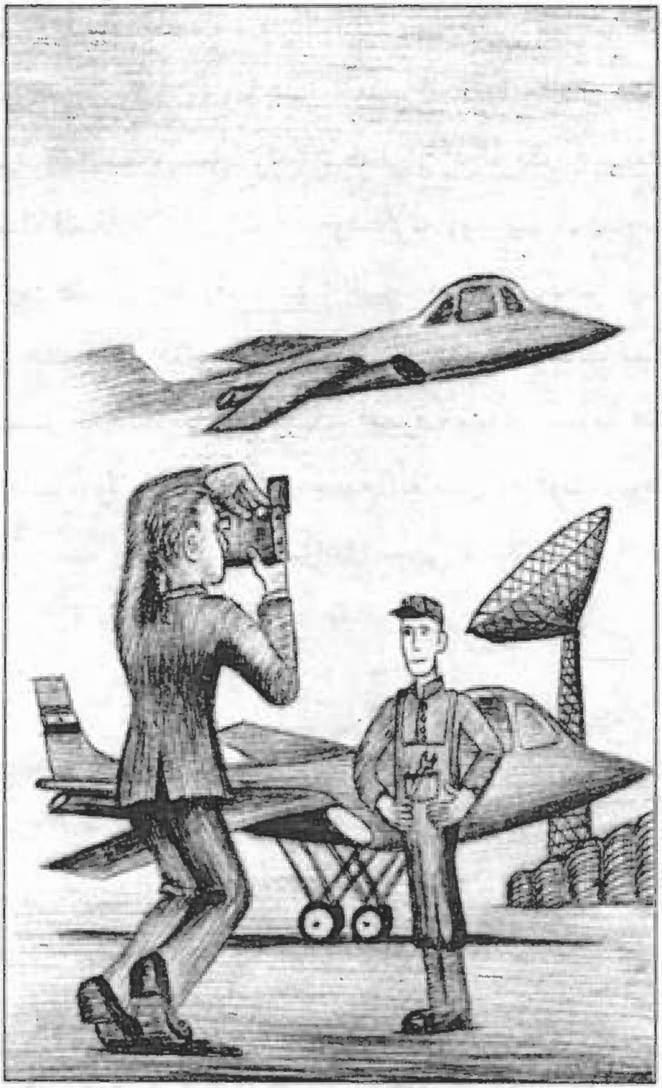
لقـد راحَ يَـدْعونا إلى الغَـدَاءِ والعَشَـاءِ، وينفـقُ الكـثيرَ علـى سهراتٍ تمتدُّ بنَا إلى مَا بعدَ مُنتصفِ اللَّيْـل، ولَـمْ يحـدثْ أَنَّ شَكَّ فيه أحدُنَا.. إنه «ضابطٌ سـابق» لا يمكـنُ قَـط أَنْ نَتصـوَّرَ أنه مِنَ الممكنِ أَنْ يجمعَ مَا يتناثر مِنْ أفواهنَا مـنْ معلُومَـات، تُفْلتُ مِنَّـا دونَ أَنْ نَتنبَّـه، كـأَنْ نـذكرَ عـددَ الطـائراتِ التِـى ستعودُ إلى الخدْمةِ، وتلكَ التِى فِـى الخدمـةِ فعْـلاً.. بـلْ لقد جعلنَا نصْحبه يومًا إلى دَاخِلِ أمَاكن العمـلِ، وراحَ يلـتقطُ لنـا

الصورَ، وكانَ فى الواقعِ يقومُ بتصويرِ المطارِ. ومَا يضمُّ وما يحتوِى مِنْ طائراتٍ وَمَدَافِعَ مُضَادّة، وَوَسَائل دِفَاع..

وَلنَا أنْ نتساءَلَ: كلُّ ذلكَ ولَمْ يُسَاوِرْهم الشكُّ فيه؟

لا لا.. إنَّهَا صورٌ تِذكَارِيَّةٌ - كَما قالَ - نحتفظُ بهَا عندمَا نعودُ للقَاهِرة، وتبقَى مَعَنَا ذخرًا لأولاَدنَا، لِمَا قدَّمنَاهُ مِنْ خدمَاتٍ لقُواتنا المسَلَّحَة.. والغريبُ أَنَّهُ لم يُعْطِهم صورةً وَاحِدة مِنْ هَذِه الصُّوَر، واحتفظَ بالصُّورِ لنفْسِهِ.. بلْ هُمْ لَمْ يرْوهَا عَلى الإطلاَق، وادَّعَى أَنَّ الفيلمَ فَسَدَ أثناءَ تَحْمِيضِه.. وَصَدَّقْنَاه، لأنه أصبحَ صَدِيقًا وصاحبًا لَنا، وَصِرنَا نَقْضِى معه أغلبَ وَقتنا بعْدَ فَرَاغنا منَ العمل..

بل امتدَّت العلاقةُ بيننَا إلى حَدٍّ أَنَّه كثيرًا ما كانَ يقضِى مَعنَا طيلةَ يومنا، وَلاَ أحَدَ يشكُّ فِيه، خَاصَّة وقَدْ ظَنُّوا أنه قادِم معَنَا لمعَاوَنتنا فِى مُهمتنا بخبرَاتِه السَّابقَة.. إلى أن انتهتْ مُهمتُنا، وصارَ يَتحتم عَلَيْنَا أَنْ نعودَ إلى مصرَ.. لقدْ كُنَّا - بدون شكٍّ - ضَحيَّةً له، وكانَ يجدرُ بنَا أَنْ نكونَ علَى حَذَر.. وَقُبيل مُغَادرتنا دمشق عَرَضَ عَلىَّ أَنْ أمدَّه منَ القاهرةِ



ببعضِ معلوماتٍ مُعَيَّنـةٍ، وأنْ أبعـثَ بهـا عَلـى عُنْوَانـه عَلِـى صندوقِ بريد ٦٧٦٥.. ومنحنِى خمسينَ جنيهًا مُقَابـل ذَلِـكَ، كمسَاعَدةٍ، لأشترى ثيابًا ولعبًا لأَطْفالِى، إذْ لمْ يكنْ قـد تبقّـى مِنْ بدل السَّفر إلاّ أقلّ القَلِيل.. وشـكَرْته ووعَدْتـه بـأنْ أبعـثَ إليه بمَا طَلَب.. وقدْ بَعَثتُ بهَـا إلَيْـه، دونَ أن يخطـرَ ببـالِى مَدَى خُطُورَة مَا أَفْعل، ومَا تَصَوَّرتُ أنَّ هَذِه المعلومَـاتِ يمكـنُ أنْ تَصِـلَ للأعْـدَاء، ومـا كنـتُ أعـرفُ مَـدَى سِـرِّية هَـذِه المعلُومَاتِ، ولا خُطُورتها لأنَّ جميعَ العاملينَ يعْرفونها، وهـى شائعَة بَيْنهم ولم أدرِكْ أَنَّ إسرائيلَ تَسْعَى لامتِلاَكها.

(٩)

الرسالة المفقودة

عندمَا التقَى «رشدى» ومرتجى، كانَ الشيطانُ ثالثهمَا، فَقَدْ بدأَ التعاونُ بينهمَا، وهو تعاونٌ عَلى الإثمِ والعدوَان، وليسَ عَلى البرِّ وَالتقْوَى.. لَقَدْ أَسَاء كُلٌّ منهما إلى وَطنِه إسَاءَة لاَ تُغْتفر.. ولكنْ مَا قَامَا به فِى دمشقَ لم تكنْ لَهُ خُطورَة، إذْ كانَ الأمرُ لا يتعدَّى بضعَ طَائراتٍ قديمَةٍ، يتمُّ إصْلاَحها.. لكنهَا كَانت فى الواقعِ مُجَرّدَ بدَاية، وتدْرِيبٍ لهمَا عَلى التقاطِ المعلوماتِ وتجميعهَا وإرْسَالها إلى روما..

وكانتِ العيونُ الراصِدَةُ تتبعُ كلَّ ذلكَ، وقد أمسكتْ بطرفِ الخيطِ، وَمَضت مَعه، وعندمَا بعثَ «مرتجى» بخِطَابه الأول مِنَ القاهرةِ، استطاعَت تلكَ العيونُ السَّاهرةُ أنْ تلتقطَهُ مِن العنوانِ البريدِى المكتوبِ عَلى المظروفِ ٦٧٦٥.. وَفتَحت الرسالةَ، وتمكَّنتْ منْ أنْ تعرفَ مُحْتوياتهَا، كَمَا أنها تمكَّنت

ببراعةٍ شديدةٍ، ناجمةٍ عَنْ تدريبٍ طويلٍ عَلى مُكَافحةِ التجسُّسِ والجواسيسِ، تمكّنت مِنْ تغييرِ الأرقامِ التِى احْتَوَتها الرسَالةُ، فأفْسَدَت قِيمتها، وجَعَلتها بدونِ جَدْوى حَقِيقيَّة، وتركَت هذِه الرسَالةَ تمضى فِى طَرِيقها إلى دمشق وَمنْهَا إلى رُومَا، وعندمَا وَصَلت ابتهجَ بهَا «عصام» كثيرًا، إذْ تصوَّرَ أنه وقعَ عَلى كنزٍ يتمثلُ فِى «رشدى» الذِى راحَ يُقدِّمُ لهم خدمَاتٍ معَ زميلهِ الجديدِ «مرتجى» وكانَ أَنْ تَلَقَّى «رشدى» مكافأةً ماليةً كبيرةً، وَطَلَبُوا إليه أنْ يبعثَ إلَيْهم ببعضِ المعلومَاتِ عنْ مطارِ «إنشَاص»، ورأى «رشدى» أنه مِنَ الأفضلِ أنْ يزورَ القاهرةَ، ليلتقِى مَعَ زَميلهِ فى العملِ، يقتسمُ مَعَه المَالَ، وَيُكَلفه بمَا يَرْغبونَ فِيه.

نَشِطَ «مرتجى» نشاطًا كبيرًا لكى يُوَافى «رشدى» بتلكَ المعلوماتِ التِى استقاهَا مِنْ زُملاءٍ له فى ذلكَ المطارِ أَضَافها إلى مَا يعرفُهُ عنه شخصيًّا، إذْ ترَدَّدَ عليْه كثيرًا، خلالَ مُهماتٍ أوكِلَت إليْه كمِيكَانيكى جَوِّى.. وبقَى «رشدى» فى

القاهرةِ فترةً ليْسَتْ بالقَصِيرَة.. الغريبُ أنه لَمْ يُفكرْ فِى زيَارَةِ أَهْله وأسْرَته، وَقَضَى كلَّ الوقتِ فى الشقةِ المفروشةِ التِى كانَ «مرتجى» قَدِ اسْتأجرهَا لنفسِهِ عقبَ التِقَائه مَع «رشدى» فى دمشق وبعدَ أنْ أَصبحَ لَدَيْهِ مِنَ المال مَا يمكنّه منْ ذلكَ..

وتعاونَ الاثنانِ فى كتابةِ رسالةٍ بالحبْرِ السِّرى لِكَىّ يبْعَثَا بهَا إلى رُومَا، ولم يخاطرْ «رشدى» بإرسَالهَا إلَى هناكَ مِنَ القاهرةِ، ووجَدَ أَنَّ إرْسَالها مِنْ دمشق أضمنُ وَأيْسَرُ، فَوَضعها فى جَيْبه فى حرص شديدٍ عليهَا.. وَوَدَّعه مرتجى فى المطار، وسألَه أنْ يُكَرر زيَاراته وهِبَاتِهِ الماليَّة، بلْ لمْ ينْسَ أَنْ يُوصيهِ عَلى الرِّسالةِ التِى فِى جَيْبه، والتِى تحملُ أسرارًا هَامَّةً، وعِندَما وصلَ إلى دمشق، وعادَ إلى وَكْره، ومدَّ يَده إلى جَيْبه يريدُ أَنْ يخرجَ الرِّسَالةَ، وإذا به لا يَعْثُر عليها، وكَادَ يفقدُ صَوَابه فقد كانَ يتحسَّسهَا حيثُ وَضَعها فى قلقٍ عَلَيْهَا، وكانَ يَطْمئنُّ إلى وجودهَا بينَ حينٍ وآخرَ..

جلسَ «رشدى» يكتبُ ما يَتَذَكَّره من معلوماتٍ كَانَت فِى الرسَالةِ، وهو يكادُ يُجَن، ويسألُ نفسَه بينَ حينٍ وآخر:

كيف فَقَدتها؟!.. ولم يعثرْ عَلى جوابٍ عَلى ذلكَ السؤالِ الذِى رَدَّده ألفَ مرَّةٍ.

لَمْ يكنْ هناكَ مِنْ أحدٍ يعرفُ السِّرَّ غير الضابطِ الذَّكى «كمال صبرى»، الذِى كانتْ مُهمةُ الإيقاعِ بالجاسوسِ مِنْ مَسْئُولياته، وأرَادَ أن يلعبَ معه لعْبَةَ القِطِّ والفَارِ فيدَاعِبَه، إلى أنْ يحسَّ بالدُّوَارِ، ويسقطَ بينَ يديْهِ فِى سُهُولةٍ وَيُسْرٍ.. استعانَ «كمال صبرى» بالمَبَاحثِ العَامَّة - وهُوَ جهَازُ الشُّرطةِ التابعِ لوزَارَةِ الدَّاخليةِ وهو ينهضُ بعبْءِ مُكَافحةِ الجرائمِ الداخلية - لقد سَألهم أنْ يُعِيروهُ نَشَّالاً بَارعًا ماهرًا، لِكْى يُدَربه عَلى النشلِ، مُقَابل تخْفيف عُقُوبته.. ونجحَ ذلكَ النشالُ نجاحًا بَاهِرًا فِى مُهمته، إلى حَدٍّ أنَّ الضابطَ «كمال صبرى» أصبحَ فى نفسِ مَهَارته، وكانَ كثيرًا مَا يُدَاعب زملاءَه أثناءَ العملِ بنشلِ سَاعَاتهم وأقلاَمِهم وَمحَافظهم أو سَلاسِلِ المفاتيحِ الخاصَّة بهم.. كانَ يفعلُ ذلكَ تدريبًا لِيَدِه وأصَابعهِ، وكانَ كُلُّ منْ يفقدُ شيئًا مِنْ بَيْنِ زُمَلاَئه يَأْتيه ليسْألَه عَنْه! وكَانوُا سعداءَ بَبَراعَتِه، وضاحكُوه كثيرًا

وهُم يُطَالبونـه بـأَنْ يَسْتقيلَ؛ لأنَّ هـذَا العمـلَ الجديـدَ، فِيـه راحَةٌ له.

لَم يكُن منَ الصعْبِ عَلى «كمال صبرى» نَشْل الرسَالة ومَـا تحويه من صُور يمكنُ أنْ يستفيد منها الأعداءُ، بلْ ولقدْ نشلَ معها بَعْضَ أورَاقِه المالية التِى لَمْ يَدْرِ مَا يفعـلُ بهـا فأودعَهَـا خزينةَ المخَابَرات..

أَمَّا «رشدى» فكانَ يضربُ كَفًّا بكفٍّ، مَذْهولاً، مُتَسَائلاً:

كيفَ وَقعت مَنِّى الرسَالةُ؟! مَاذَا يقولُ هذَا الذِى سيجدُهَا؟

المهم أنه لَنْ يعرفَ أَنِّى صاحبهَا، ولَنْ يَسْتفيدَ منهـا، وإنْ كنتُ قدْ خَسِرْتهَا وضَاعَتْ للأَبَدِ.

(١٠)

لعبة القط والفأر

المفـروضُ أَنْ يكـونَ فَقْـدُ الرسـالةِ إنـذارًا وتَحْـذيرًا.. لكـنَّ «رشدى» كانَ غائبًا عنِ الوَعْى، يقومُ بأداءِ مَا هُوَ مطلوبٌ مِنْـهُ بِـلاَ تفكـير، وَيَمْضِـى فيـه دونَ تـدبير، وعنـدمَا لمْ تَصِـل المعلوماتُ المطلوبةُ عَن مَطارِ «إنْشَاص»، اسْـتدعتْهُ المنظمـةُ إلى روما، وقد أخْفَى عنهم ضياعَ المظرُوفِ منْ جَيْبهِ وادَّعـى أنـه بَعَثَ به فعلاً، وأنه لاَبدَّ وأنْ يكـونَ قـدْ ضـاعَ فِـى الطريـق.. الأمرُ الذِى جَعَلهم يُغَيِّرونَ من رَقمِ صُندوقِ البريد، بَلْ وقَـرَّروا أَنْ يَسْتَغْنوا عَن هَذا الطريقِ فـى التخاطُـبِ، وراحُـوا يُـدَربونَ «رشدى» عَلى استخدامِ اللاسلكى..

كانت هَذِه نقلةً كبيرةً لـه، هَـاهو يسـتخدمُ «التكنولوجيـا» الحديثةَ فى خِدْمة «السلام» الذِى حَدَّثوه عَـنْ مُنَظَّمَتـه، بعـدَ أَنْ تدربَ مِنْ قبلُ عَلى الحبْرِ السِّرِّى.. إنهَا خبراتٌ يتعلَّمُهَـا يمكنُ أنْ يَسْتفيدَ منها مُسْتقبلاً.. والسُّؤال:

ألم يخطُرْ ببَالِ «رشدى» حَتَّى ذلكَ الوقتِ أنَّ مَا يقومُ بـه هُو لخدمةِ إسرائيل، وأنَّ كلمـةَ «السلام» هـذِه ليسَـت سِوَى «ستار» لإخفَاءِ الأَمْرِ؟

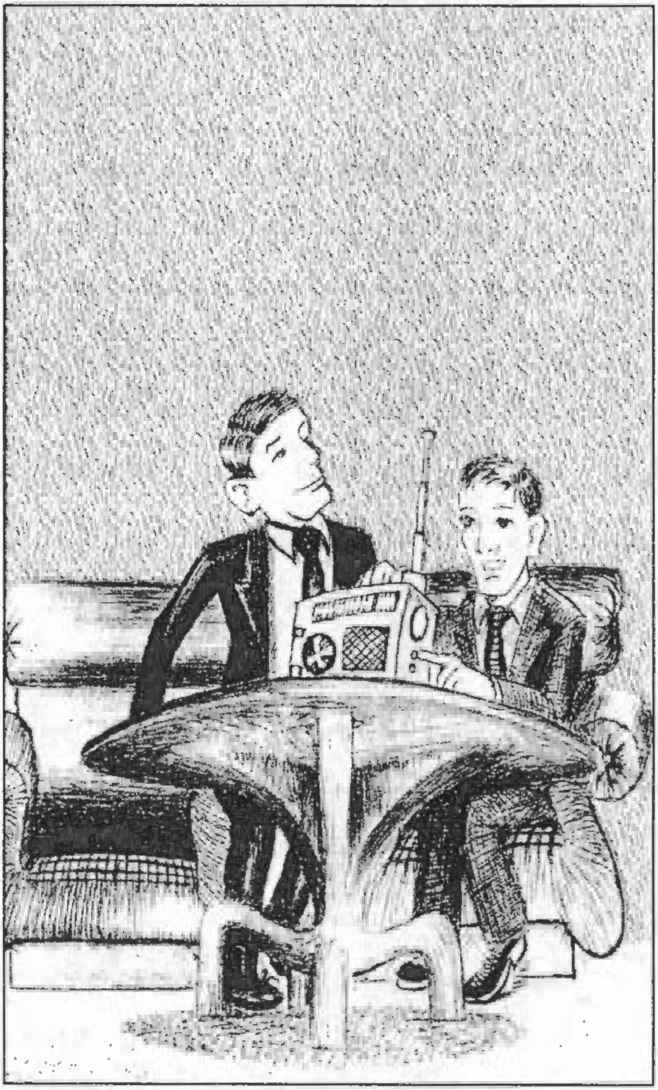
هو يقسمُ أنَّ ذلك لم يخطُرْ ببَاله قَط، بَلْ إنه لَوْ خَطَـرَ لـه لَتَرَاجَعَ، فهو يعتقدُ أنَّ إسرَائيلَ لاَ تسعى أبـدًا للسَّلاَم، بَـلْ إنهَا قَامَت عَلى العدوَان: فقد اعتـدَت عَلـى الفلسْطينيين إلى أَنْ تمكَّنَت بحربِ ١٩٤٨م مِنَ الاسـتيلاءِ عَلـى أرْضِـهم وَطـرْدِ أعدادٍ كَبيرةٍ منهم.. وفى سنة ١٩٥٦م اعتدت عَلى مصرَ بدونِ أىِّ مُبَرِّرٍ، فلاَ هِيَ عَلى صلَةٍ بشركَةِ قنـاةِ السُّوَيس، وتـأميمِ مصرَ للشركةِ لاَ عَلاَقَةَ لَهَا به، وكانَ عُدوانهَا عَلى قِطَاع غَـزَّة ثُـمَّ سـيناء مفاجـأةً لِكـلِّ العَــالَمِ، الـذِى اكتشـفَ بعـدَ يومَيْنِ لاَ أكثَر أنَها ضمنَ مُؤَامرةٍ كُبْرى، وأنهَا ذيـلٌ لإنجلـترا وفرنسـا، مـن أجـل استعَادةِ القَنَـاة.. وتسرَّبت أخبارُ أنهـا أَخَذَت ثمنًا غَاليًا لِذَلكَ، فقـد أَمَـدَّتها فرنسـا بخبراتٍ ذَرِّيـةٍ مَكَّنتهـا مِـنْ إقامـةِ «المفاعـل النـوَوِى» فِـى «دَيْمونـة».. ذلـكَ المفاعلُ الـذِى عَرَفـت الـدنيَا كُلُّهَـا أنـه قـدْ تمكـنَ مـن صُنْعِ

عَشَراتٍ مِنَ الرءُوسِ النوويَّةِ التِى تهدِّدُ بإبادَةِ المنطقةِ بأسرهَا..

وعَادَتْ إسرائيلُ فى العدوانِ بإعلانهَا ضم سيناءُ لولاَ أنَّ المجتمعَ الدُّولى رَفضَ ذَلِكَ، وطَالبها بالانسحابِ عَنْ سيناءَ وغَزَّة، واضْطرت عام ١٩٥٧م بالجلاء عن غزة وسيناء.

وَيؤكدُ «رشدى» لنفسِه: إننى حينَ أعمل معَ السَّلامِ فإنَّ ذلكَ يعْنِى أننى أعملُ ضدَّ إسرائيلَ، لاَ مَعَهَا!

عندَ هذِه النُقْطَة، نَشْعُر أَنَّ «رشدى» كانَ يغالطُ نفسَهُ حينَ ادَّعى أنه لمْ يربطْ بينَ مَا يَفْعلُهُ، ومَا بينَ إسْرائيل.. إنَّ شيئًا مَا بداخِله لابُدَّ وأنْ يكونَ قَدْ جعلَهُ يشعرُ ويحسُّ بصلةٍ مَا بينَ الأمْرَيْنِ، لكنَّ مَصْلحته الخَاصَّة حَتَّمَت عَليه أنْ يُسْكِتَ هذَا الصَّوتَ، ويواصلَ التدرُّبَ عَلى أعمال اللاَّسلكى: إرسَالاً واسْتِقبالاً، إلى أَنْ أتْقَنَ ذَلكَ فى فترةٍ لا تتجاوزُ ثلاثةَ شهورٍ قضاهَا فِى رومَا، وحَانت لحظةُ عَوْدته إلى القَاهرة.. وكَانت مُخابراتنَا الذَّكيَّة، من خلال مُتابعتها لعصام قَدْ أدْرَكت حقيقةَ مَا يَجْرى، وعَرَفتْ جانبًا مِنه، لهذَا ظلَّت تراقبُ



«رشـدى» عَـنْ بُعْـد، ودونَ أَنْ يشـعرَ.. وعنـدمَا رجـعَ كَانـت العُيونُ تتطلَّعُ إليْه، ولا تغفلُ عنه أبدًا..

وكانَ بينَ ثِيَابه وحَقَائبه فى رحلـةِ العودةِ جهَـاز التخاطـبِ اللاَّسِلكى، وهوَ منْ أحدثِ الأَجْهـزةِ، وأَدَقهـا.. ولمْ يكـنْ أمـرهُ سِرًّا خَفيًّا عَلى الضابطِ الهمَامِ «كمال صبرى»، الـذِى كـانَ يريـدُ أَنْ يُوقِعَ بالضَّحِية وَهِيَ فِي كامـلِ تورُّطهـا، كَمَـا كـانَ يريـدُ أَنْ يستثمرَ مُرَاقبتَـه لـه بمعْرفـةِ: مَـا الـذِى ترغـبُ إسـرائيلُ فـى التجسُّس عَليه؟ مَا هِى الأَمورُ الهامةُ التِى تودُّ أنْ تتطلعَ عَلَيْهَا؟

الضابطُ الشَّاب لا يتعجلُ الأمـورَ.. هـو يعـرفُ أنـه سـوف يتسلَّلُ ذاتَ يـومٍ ليكشـفَ أمـرَ هَـذَا الجهـازَ، والموجـةَ التِـى يتلَقَّـى عليهَـا الرسـائلَ، وتلـكَ التِـى يبعـثُ مـن خلالهَـا بالمعلُوماتِ، وتسـتقبلُ مُخَابراتنـا هـذِه وتِلْـكَ، وتعـرفُ منهـا الكَثيرَ: ما الـذِى يريـدونَ مَعْرفتـه، ومَـا هِـى البيانـاتُ التِـى يمكنُ أنْ تصلُ إلَيْهم وما مَدَى خُطُورَتها؟!

لـذلكَ كـانَ مـرورُ «رشـدى» مـنْ دوائـرِ الجمـاركِ ميسـورًا وسهْلاً. الأمرُ الذِى جعَله يشعرُ بارتياحٍ عَمِيق، علـى أسـاسِ أَنَّ ذلكَ يُؤَكد له أنه ليسَ موضعَ شُبْهة.

وبدأ «رشدى» يجمعُ المعلوماتِ المطلوبةِ..

وكانَتِ «المصَادَفة» تُلْقى بينَ يَدَيه بمنْ يُقدِّمها لـه، وَيشـعرُ بالارتياحِ لِذَلك، دونَ أنْ يدركَ أنَّ مَـا يتصَـوَّره «صُـدْفة» كـانَ مُرتبًا وَمقْصُودًا، إذْ أَنَّ هؤلاءِ كانَ يدفعُ بهـم «كمـال صـبرى» إليْه، ليقدمُوا له معلومَـاتٍ تبـدُو سَـليمةً، لَكِنهَـا فِـى أغلـبِ الأوقاتِ كانت مُزَيَّفة، وَبَعْضهَا السـليمُ كـانَ يهمنَـا أن يصـلَ إليهمْ لسببٍ أو لآخرَ..

واسْتمرتِ اللعبةُ وقتًا طالَ.. الفأرُ يظنُّ أنه ليسَ موضعَ شَكٍّ أوْ رِيبَة، والقطُّ يُدَاعِبُه..

(١١)

السقوط

استأجرَ «رشدى» شقّةً صَغيرةً، وكَانت قَدْ أصْبحت لديْـه إمكاناتٌ مَاديَّةٌ لـذلكَ، فقـد رفعُـوا رَاتبـه إلى مَائـة وخمسـينَ دولارًا شهريًا وقدَّموا له مُكافأةً، هى عبارةٌ عَنْ ستمائة دولار أخرى، وكَلَّفوا مـنْ مَطْلَبهم منـه: هُـم يريـدونَ كـلَّ صَـغِيرةٍ وكَـبيرةٍ عَـنْ مطـارِ «المَاظَـة» الحرْبـى.. طَائِرَاتـه: أنواعهَـا وعددهَا.. وَعَنِ الطيَّارينَ وتَدْريباتهم.. وَوَسَائل الـدفاع عنـه، ومَا إلى ذلِكَ.. ومن هنَا بدأ «رشدى» فِـى الاتصـالِ بكـلِّ مَالَـهُ صِلةٌ بهذَا المطَارِ وَلمْ يَكنْ لدى الضَّابطِ «كمـال صـبرى» مـانعٌ منْ أنْ يقدمَ له بعضَ المعلوماتِ: جانبٌ منهـا - كمـا تعـوَّد - لا يمتُّ للحقيقيةِ بصِلَةٍ، والجانـبِ الآخـرُ صـحيحٌ وإن كـانَ لا يفيدُ، ولا يقدِّمُ ولا يُـؤَخرُ. لكنَّـه مـنْ أجـلِ أن يَظُـن مَـنْ يتلقَّاه أَنَّ كلَّ المعلوماتِ سَليمة..

وكَانَ «رشدى» ومعهُ «مرتجى» يجريَانِ وراءَ هذِه الأمورِ فِى الوقتِ الذِى تمكنَ فيه «كمال صبرى» من إبعَادهما عَن القاهِرَةِ فى مُهمةٍ زَائفةٍ بالإسكندرية، لكى يتسلَّلَ إلى الشقةِ المسْتَأْجَرة.. وَلَمْ يكنْ مِنَ الصعبِ عَلَيْه أَنْ يدخلَ إليها، وأنْ يقضىَ الليلةَ كاملةً فيهَا، ومَعَهُ طاقمٌ كاملٌ مِنَ العاملينَ بالجهازِ، وَمنْ بَيْنهم مهندسُونَ فى اللاَّسلكى، والإلكترونَات، والأجهزةِ العلميَّة المتطوِّرة.. وَقَدْ فَحصُوا كلَّ شَىْءٍ بدقةٍ شَدِيدةٍ، ولمْ يتركُوا شاردةً ولا وَاردةً إلاَّ دقَّقوا فيها، دونَ أن يتركُوا أىَّ أثر يدلُّ عَلى أنَّ هناكَ مَن اقتحمَ المكانَ أَوْ دخلَ إليْه.. كانَ المكانُ وهم يُغَادِرُونه كما كانَ عندمَا أقبلُوا، مَعَ أنهم قلَّبوا كُلَّ شَىْءٍ رأسًا عَلى عَقِب، وصَوَّرُوا كُلَّ صغيرةٍ وَكبيرَة..

لقدْ تمتْ عمليةُ «كمال صبرى» وَرفَاقه بنجاحٍ تامٍّ..

كانتِ الأدواتُ التِى حَصَلَ عَليها «رشدى» حَدِيثةً، فى ذلكَ الحِين.. إنه «بيك أب» لا يمكنُ الشكُّ فِيه، لَكِن بداخِله كانَ جهازُ الإرسَال.. أمَّا جهازُ الاستقبال فكانَ عبارةٌ

عَنْ راديـو صَغِير عَـادِى لاسْتقبال الإشَـارَات عَلـى موجـةٍ بذاتها.. كما كانت هنـاكَ مفكـرةٌ صـغيرةٌ فيهَـا شـرحٌ مُفصَّـل لكيفيةِ الاتصال اللاَّسلكِى وطَريقتِهِ فى الأوقاتِ العَادِيَّة.. وَفى حَالةِ الطوارئ.. كَذَا الموجاتُ التِى يـتمُّ الاتصـالاتُ عَليهـا، والشفرةُ الخاصَّةُ بهَا.. هذَا بجَانب آلـةُ تصـوير، بهَـا عدسـةٌ إضَافيةٌ وَحَاجزٌ للضَّـوءِ، وَلـوحُ زجَـاجٍ صَغيرٍ، يُستخدمُ فـى تصوير المستنداتِ.

إننا أمام معمل كامل، مُجهزٍ بكلِّ مَا يمكِّنُ الجَاسُوس مِـنْ نقلِ مَعْلومَاته باللاَّسِلكى من القاهرةِ إلى رومـا، ومـن رومـا إلى تل أبيب.. وبعدَ معرفـةِ أطوالِ الموجـاتِ الخاصـةِ بالإرسـالِ والاستْقبالِ، وبعدَ فكٍّ الشـفرةِ الخاصَّـة، أصبحت كـلُّ هَـذِه التجهيـزاتِ تحـتَ سيطرةِ المخـابراتِ المصريّة، وبـاتَ فِـى مقدورِ «كمال صبرى» أن يعرفَ ما يـدُورُ، ومضمونَ الرسـائلِ التِى يبعثُ بها «رشدى» وزميلُه، ومـا يتلقَّونـه مـنْ تعليمـاتٍ وَأوامِر..

ومرةً أُخرى، لم يكنْ «كمال صبرى» فى عَجَلةٍ مِنْ أمْره..

لماذا لا يستمرُّ فى لعبةِ القطِّ والفأر؟!.. إنه يبلِّغُ رُؤَساءَه أولاً بأول بمَا يجرِى ويدورُ، وهُو مَعهم يقدرونَ مَدَى أهمية هذَا الذى يَبْعثُ به «رشدى» وهُم لا يجدونَ فيه مَا يشكِّلُ أَيَّةَ خُطُورة.. ولا بأسَ من تقديمِ المزيدِ منَ المعلومَاتِ، المزَيَّفةِ حينًا، الصَّحِيحة حينًا آخر.. والرقابةُ تتمُّ عَلى أكمل وَجْهٍ.. رقابةٌ صَارِمةٌ عَلى الإرسَال والاستقبال، والتَشْويش أحيانًا عَلى بعض مِمَّا يهمنَا ألاَّ يَصِل.. وَرَقابة أخرَى عَلى الرجُلَيْن اللَّذيْن كانَا يعملانِ، ويتحركان فى حُريةٍ كاملةٍ ظَنًّا مِنْهما أَنَّ أحدًا لا يَدْرِى عَنهما شيئاً، معَ أنَّ خُطوَاتهما كَانت تُحْصى عَلَيهما، وتُسجلُ كُل صغيرةٍ وَكبيرةٍ منْ جَانبِ فَريقِ عَملٍ، اختارَه «كمال صبرى» بدِقَّةٍ وَذكاء.

وعندمَا أحسَّ «كمال صبرى» أَنَّ وقتَ العملِ قَدْ حَان، أعدَّ لكلِّ شَيْءٍ عُدَّته.. وَكانَت به رغبةٌ فى أَنْ يضبطَ «رشدى» و«مرتجى» - معًا - وَمُتلبِّسيْن، معَ أنَّ هَذِه الأجهزَة، وكُلَّ القرائنِ تثبتُ إجْرَامَهُمَا، وتؤكِّدُ عَلى خِيَانتهما، لهذَا الوطنِ الجليلِ، الذِى يستحقُّ كُلَّ التكريمِ، بَلْ والتقدِيسِ..

وَجَاءتِ اللحظَةُ ..

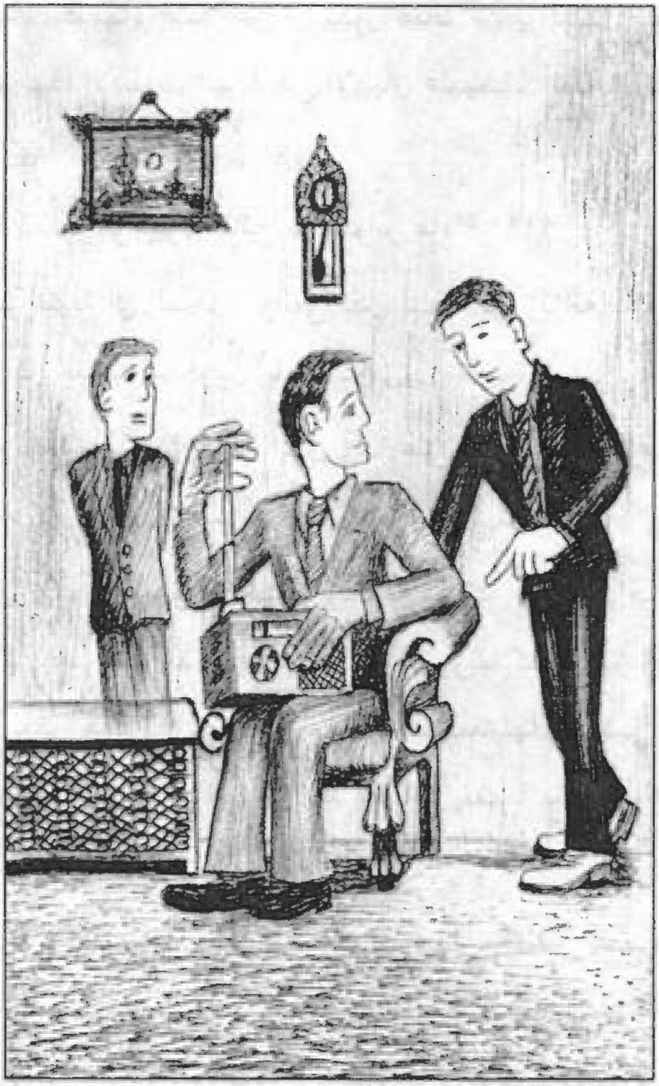
كانت المفاتيحُ المصَنَّعَةُ التِي فَتَح بهـا البـابَ مـن قبـلُ قـدْ بَدَأت تدورُ، و«رشدى» مُنهمكٌ فِي إرسَال إشَـارَاتِهِ، مُسَـاعدة «مرتجى» عندمَا دخلَ فريقُ العمـل.. إنـه يعـرفُ طريقـهُ مـنْ قبلُ، فقدْ قَضى ليلةً كاملةً فِـي المكَـان، وَلـيسَ أَيْسَـر مِـنْ أنْ يكونَ هو المعاونُ فـى القـبضِ عَلـى الـرجليْن، اللَّـذيْن فُوجِئـا بحشدٍ كبيرٍ، والكـلُّ يحمـلُ المسدَّسَـاتِ، وعَلـى وجْهـه كـلٌّ علاماتِ الحزمِ والإصْرَارِ بجانـبِ نظـرَاتِ اشمئـزازٍ تطـلُّ مـنَ العيونِ، وَخطوة مـن «كمـال صـبرى» نحـوَ جهـازِ الإرسَـالِ، ليُقدمَ مِنه آخرَ رسَائِلِهِ:

– عصام.. لا تحـاولْ مـرةً أخـرى.. نحـنُ لـكَ بالمرصَـادِ.. تعيشُ وتأخُذُ غيرهَا يَا...

وَشَفَعَهَما «كمال صبرى» ببعضِ الشَّتَائمِ والسِّبَابِ: المهَذَّبةِ.

كان «رشدى» و «مرتجى» مذْهُولين..

لقدْ كانَا مُطْمئنيْن إلى أنَّ كلَّ شيءٍ يسيرُ عَلى مَا يُـرام، ولم يخطرْ فِي بالهمَا قَطَّ أنَّ شيئًا مَا قد عُرف عَنهما، أوْ أنَّ هناكَ



من يشكُّ فيهمَا، فَضْلاً عَنْ أَنْ يكونَ هناكَ مَنْ يُرَاقبهما، فمَا بَالكم بهذَا الأسلوبِ الفَريدِ فى الإطْبَاقِ عَليهمـا، أثنـاءَ القيـامِ بمهمتهمَا الوَضِيعَة.

كانَ ذلكَ هو اليومُ الثانِي من فبراير عام ١٩٦٠م..

لقدِ اقْتيدَا إلى السجنِ، وَأُلقِي بِكُلٍّ منهمَا فِي زِنزانةٍ منفردةٍ وراحَ كلٌّ منهما يستعرضُ مَا حَدَث..

ألمْ يُتح لهما هذَا الوطنُ الذِى وُلدَا عَلى تُرَابه أنْ يَأْكلا مِـنْ خَيْره، وأنْ يَسْتظلاَّ بسَمَائه، وأنْ يشربَا مِنْ نيلِهِ؟!

هَلْ يكونُ هذَا هو ردُّ جميلهِ وَفَضْله وكَرَمـه وَنُبْلـه؟! مَـاذا كسَبَا؟! لقد كسَبَا بضعةَ دولاراتٍ قذرةٍ، وَربما كانت مُـزَوَّرة، أنفقَا بعضَ هذِه الدولاَرات؟! لقدْ فقدَا فى مُقَابلها كلَّ شـىء: الضميرَ. الكرامة. الشخصيةَ.. لَقدْ فقدَ كلٌّ منهما نفسَه، وكلَّ كسبٍ إزاءَ ذلكَ يَهُونُ، ولَوْ كَانَ الملاَيين..

هَاهُمَا، بدايةً، قدْ فَقَدَا الحريةَ، ويرقـدانِ خلـفَ القضـبانِ جزآء مَا قدَّمته أيْـديهمَا.. إنَّ أحـدًا منهمـا لا يقـدرُ عَلـى أنْ

يرفعَ عَينيْـه فـيمنْ حَوْلـهِ.. وخـلالَ نقلـهمَا مِـنَ الزنزانـةِ إلى المحكمةِ كانتِ المطربةُ تَشْدُو ومنْ خلالِ الإذَاعةِ..

– مصر مصر أُمنا..

نيلها الحياة..

مِنّةُ الإله..

ومَا أن تنتهى هذِه الأغذيةُ حتَّى تأتِى أُخرى..

كانت كلماتُ الأغانِى كأنها خناجرُ تَطْعَنهما فى قَلْبَيْهمَا.. ويحاولُ كلٌ منهمَا أنْ يتجاهَلَهَـا، وإذا بالجنـدِ مِـنْ حولهمـا يردِّدَانها عن إيمان، ويكادُ الواحدُ منهما يرفعُ يديْه يضـعهمَا عَلى أذنيْهِ.. لكنْ مَا مِنْ فرارٍ منهما.. ومَا منْ فرارٍ منَ المصـيرِ المحتَّمِ الذِى ينتظرُهُمَا..

أيكونُ الإعْدَامُ ؟!

أيكونُ الأشغالُ الشَّاقَّةُ المؤبَّدَة؟

أيًّا كانَ الحكمُ، فَلا أملَ لهما فى الحياةِ، بشرَفٍ..

كانَـا يتطلعَـانِ مـن بـين قضـبانَ العربـةِ التِـى تحملـهمَا، وينظران إلى النـاسِ مُـنْطلقينَ فـى الشَّـوَارعِ، كُـلٌّ إلى غَايَتـه،

وعَلى وَجْهه ظِلاَلُ ابتسامةٍ طَيِّبة.. إنهـم يتنسَّمونَ الحرِّيـة، ويأكلُونَ خُبْزهم بعَرَقهم، ويـؤدُّون وَاجـبهم نحـوَ هـذا الـوطنِ العظيمِ العريقِ، الذِى أَحَبهم وَأحَبُّوه.

وكانَا خلالَ المحاكمةِ يخفيانِ وَجْهيهما عنِ النـاسِ الـذينَ يتطلَّعونَ إليهمَا.. وكانَا يضيقانِ بـآلاتِ التصـويرِ التِـى تُوجَّـه عَدَساتها إليهمَا.. وكانت مُحَاولتهما لنفْـيِ التُّهمَـةِ سـاذجةً، وَغَيْرِ مَقْبُولة، وَكَانت كَلِمَاتِهَمَا عَن السَّلامِ والمنظمةِ التِى تعملُ منْ أجْله مُحاولةً أكْثر سَذَاجَة..

إنَّ دفَاعهما وَاهٍ.. ضعيفٍ.. مُتهافِتٍ.. هُمَا لَمْ يخونَـا مصـرَ وحْدَها، بلْ والعروبةَ أيضا.. الخطأُ مُزْدَوجُ ضِـدَّ الـوطنِ وضـدَّ القومِ الذينَ هُمْ مِنهم، والأَهْل الذينَ خرجُوا منْ بَيْتِهم..

وعنـدمَا أصـدرَ القاضِـى حكمَـهُ بالأشـغَال الشَّـاقةِ المؤَبَّـدةِ أَذْهلهما الحكمُ، بل إنَّ «رشدى» تمنَّى لوْ أَنه «الإعدام».. هَلْ سَيَبقَى فى سِجْنه يأكلُ خُبْزًا مِنْ تُرْبةِ مصرَ، ويشربُ ماءً مِـنْ نيلِهَا؟!.. إنه لاَ يسْتحقُه..

لقد فَتح عَيْنيه عَلى جَرِيمته الكُبرى..



إنه لا يستحقُّ الحيَاةَ.. وكذلكَ زَمِيلُه..

ثُمَّ، أَىُّ حياةٍ هَذِه؟!.. سوفَ يموتُ فى سِجْنِه، وإذَا حَـدث وامتدَّ به العمرُ لكى يخرجَ منه، فإلَى أينَ يَمْضِى ويَذهَبُ؟!..

إنهَا نهايةٌ مَأْسَاوِيَّةٌ بكل صُورةٍ مِنَ الصُّوَر.. ومعَ صباحِ كُلِّ يـومٍ كـانَ «رشـدى» و «مرتجـى» يضـعانِ أيـديهما عَلـى وَجْهيهمَا، وكلٌّ منهمَا يَهْتِفُ..

سَامحينَا يَا .. مصر !

لكنَّ مصرَ لا تسامحُ الخَوَنة.. وابنها «مصطفى كامـل»، هـو القائل:

«إنَّ مَنْ يتساهلُ ولو مرةً واحدةً فِى حَقِّ بِلاَدِه، يعيشُ أبـدَ الدهرِ مُزَعْزَعَ العقيدةِ، سقيمَ الوِجْدَانِ».

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢٩٠٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6767-3

٧/٢٠٠٤/٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)